الـزمخشري

obeikandl.com

الخنفشاري

نافذ الرفاعي

❋

دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس

❋

009722340035

www.for-alquds.org

mjundi46@gmail.com

❋

الطبعة الأولى (2015).

لوحة الغلاف: الفنانة لينا قادري

❋

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

reproduced be may book this of part No .reserved rights All of permission prior without means any by or form any in .publisher the

obeikandl.com

الخنفشاري

نافذ الرفاعي

obeikandl.com

obeikandl.com

الـخنفشاري والنساء

جال في خاطر الكاتب البحث عن إجابات لأسئلة الفتاة الغامرة.

أيرفع راياته البيضاء؛ إستسلامًا أم يحاول إبقاء بيارقه؟!

تذكر ما قال لها: منذ أن جئتِ إلينا تحملين سحرًا شفيفًا في عينيكِ،

وأنا لاجئ مشرد في سحرهما.

ولو أعطوني ألف دولة خارج حدودهما

لما ارتجعت.

obeikandl.com

خجلت منه..

كان قد سأل إحدى بنات الأكابر من معجبات الخنفشاري، قالت: أنا أموت في لحيته الحمراء، نصف رجل دين، ونصف فاجر.. ضحكت مطولا، وقالت: أموت في أسنانه الصغيرة؛ يبدو كقارضٍ.. وضحكا أكثر وأكثر. هندامه الغريب قادمٌ من العصور الغابرة.. أنا أحبه لأنه "أنتيكة" قديم وعتيق، وكيميائي حديث. لو تسمع صوته وهو يغني لي الأغاني القديمة في محاولة اوبرالية مزعجة جدًا.. اطلب منه أغنية حديثة، وأعطيه الكلمات يعبث بها وباللحن صراخًا أو نواحًا، ليس غناء. وانفلتت الفتاة ضاحكة، مرة أخرى. أضافت:

أما احتفالاته في فن الطبخ فإنني أعشقها؛ يخلط البيض والحمص المطحون ويقليهما بطريقة عجيبة، شكلها مقززٌ وطعمها لذيذٌ جدًا.

كنت أتقزز من تناول مأكولاته الغريبة.. في البداية، رغم بدائيته كان نظيفًا جدًا؛ يغسل الأطباق والأواني، ويستحم.

أما ملابسه فيهملها كأنّ كلبًا مضغها، لكنها غالبا نظيفة..

ليست مكوية ولا متناسقة، يخلط الألوان بلا تردد، منافيًا الذوق العام والموضة، فيرتدي بنطالا أصفرا وقميصا أزرق ومعطفا أخضر وحذاء

أحمر وجرابات بيضاء، ويحمل حقيبة مخططة!

بيته نظيفٌ جدًا وغريب؛ تفوح منه رائحة البخور ويعبق بالند، ويشعرك انك دخلت زاوية صوفية أو ديراً لرهبان نُسّاك.

ينشد أشعارا صوفية.. يتناول الخمر، ومن ثم نذهب أنا وإياه إلى الفراش.

رجل غير ناعم إطلاقًا؛ يُقّبل بصوت مرتفع ويفعل كل الأشياء بمنتهى الخشونة.

أضافت:

لا يعني له العالم سوى المتناقضات من كيمياء صوفية ونسائية وخمر، خلطة من الإثم والصلاح، من التورط والتسامح.. يخلط بين حب الله ومخلوقاته، وخاصة أبهاهن في الكون النساء وما يُذهب العقل إلا قليلا والخمر للنشوة الدنيوية.

يسحرني تبُّصُره بشموخه، ووقوفه المتواصل، إنه ما بين رجل حالم وواثق، يملك نظرة" مصممة" وحادة.

يجلجل بكلماته، ويقول: إنني أرى فيك توهجًا وتمايلًا رائعًا، ورقصاتك الرشيقة والمائلة نحو جنان القلب تصهل موسيقى.

يصرخ: أريدك دون تطرف أو حزبية أو عنصرية لديانتك أو لونك أو جنسيتك.. فقط إنسانا" يعزف ويرقص وينجذب، بكامل إرادته، أو بدون إرادة.

عيونه تسأل، بوقاحة: لمن تنتمي أنت؟ إلى قلبي المهجور.. أفتح بابه على مصراعيك.

ينادي: "أيتها الانثى والروح.. أيتها المجللة برغائبيتي المجنونة! أيتها الآتية للقائي، أريد تذوق فاكهة جسدك الشهي، وأشرب شبق ندى شهوتك الدافئة".

أضافت: هذا الرجل، أيها الكاتب،

الذي تسميه "الخنفشاري"، ولا أعرف قصدك، هل هو إطراء أم مديح أم قدح"،

دعني أخبرك أنه رجل رائع جدًا، علما أنّه ليس أنيقا.. ومع ذلك واثقا.. ليس دمثا، بل دفشًا (خشنا).

إنه، بالنسبة لي، جراء إختيار شخصي، ومقدار ما يحيل المشهد لمعنى الرجل. وتعيد زفراتها، قائلة: إنه من الرعاع، ولكنه يسمو فوق كل الطبقات.

كم حاول تجريدي من عائلتي التي يسميها الأرستقراطية، رغم أنني

لست كذلك، لمّا أحبني ولا عندما كلمني. رغم ذلك، قال: لا أحب فيك سوى اسمك الأول.

إنه من أنصار الإسم الأول؛ لأن العرب، كما يقول: أضاعوا أنفسهم في الحديث عن قداسة الإسم الأخير فيهم: القبيلة، والعشيرة والعائلة.. انقسموا وتراشقوا وتحاربوا، يسوقهم الإسم الأخير من القبيلة والعشيرة والناحية والجهة؛ كقطيع الأبقار التي تعبر النهر، حيث تنتظرها التماسيح، لتقع في أنيابها الطاحنة.. هكذا يقع العرب في لعنة القبيلة.

قال: أتعلمين أن البداوة عدو الحضارة، وأرستقراط الحضارة استغلال عائلي للأسم الأخير. واسمك الأخير أضاجعه، لحد اللذة القصوى.. يضحك ويتابع: أنت تفخرين بأصولك"الأرستقراطية" وتنعتين سلوكها "الإتيكيت".

أحب هذا فيكِ.

ويضيف: أجدادك حثالة؛ إنهم من بقايا الإقطاع وعملاء الأتراك والإنجليز.

قالت: كرهته في تلك اللحظات، وأظهرتُ له كبريائي؛ كي لا يجرحه.

«قبيلة الفرد" بلا تسلسل عائلي مقيت، رغم أنه كان يعد خمسة من

أجداده،

ثم يضحك ويقول: طز أنا لستُ لي.

يكمل: إن في الصعاليك رجل اسمه"**الغرير**"، حلم بقبيلة ليس فيها إلا؟ إسم واحد أو لقب واحد؛ لأن الإنسان ما هو ليس موروثا" عائليا" أو قبليا.

أطال في شتم التخلف، واعتبر أن العشائرية والقبلية والتعصب أساس التخلف، ومنبع الحروب القبيلة، والأنتماء ما زال كما هو ولم يتغير، إنها لعنة العصبية المقيتة.

يذكر شجاراً نشب بين قبيلتين في مدينته، فجاء "الفزيع"، كما يسمونه، متأخرًا يحمل أحدهم نبّوته ويطارد رجلًا شك فيه بأنه من القبيلة المعادية، ولوح بعصاه وتبعه.. هرب الرجل وأطلق ساقيه للريح، وهو يركض وراءه إلى أن تعب الأول، وجلس على الأرض، وكان أبو النبّوت قد تعب فوصل إليه متعبًا.

قال الرجل لأبي النبّوت: أنا مسيحي مش من قبيلتكم.

أتعبتني كل هذه المسافة، ليش ما حكيت من الأول.

وهل أعطيتني فرصة! أنتَ لم تسألني بل هجمت عليّ.

خذ هذه الضربة؛ لأنني صرت متعنّي متعنّي" وأطلع بدون مشاركة! فأسال دم الرجل.

قالت: ضحكتُ على هذه الحادثة التي أكد لي صحتها.

أضحى الغرير هاجسه وقبيلة الشخص الأول باسم واحد هو فقط رجل أو امرأة، أو صفاته للتعريف.

قال الخنفشاري: الإنسان هو الإنسان وكل ما يتبعه، وليس بآبائه وأجداده علما أن النار تخلف رمادًا،

إن الفتى ما قد حصل، لا تقل أصْلي وفَصْلي بل أنا، إذن الغرير الصعلوك هو العربي النهضوي الأول.

سألها: لم تعتقدين أن العربَ طمسوا إسم الغرير، واعتبروه هامشيا تماما؟

لأنهم لن يتنازلوا عن كذب إنتمائهم لقحطان وفحطان.

نظرت إلى الكاتب، وأكملت: كان يقدر ثورة الصعاليك، واعتبرها انقلاباً اجتماعياً مريعاً، الحرب القاسية والفقر رفعتا المستوى الأخلاقي عند شاعر وفارس اسمه عروة بن الورد.. قرر إطعام الفقراء ونهب مشعلي الحروب وأغنيائها، فاقتصَّ منهم ونهبهم؛ لإطعام الفقراء.

واليوم دول الحروب والسلاح تفقر العالم من جديد، تبيع أسلحتها وتؤجّج الأكاذيب باسم الدين والقومية وغيرها.

كان الخنفشاري يصب جام غضبه على هذه الدول المنحطة أخلاقيا وخاصة بريطانيا العاهرة وأمريكا العاتية.

يعود دائمًا إلى فلسفته الخاصة به"إلى دع الحياة تعيش فيك".

كان يردد كلمات لا أفهمها ويسحرني غموضها "الكون كله داخل الإنسان" .

يغضب ويصرخ: الماضي تفسير لنا، والمستقبل وهمٌ نبحث عنه، وأين نحن من الحاضر؟

كانت الصعاليك هاجسه أو الثوار، كما كان يسميهم، مثل عروة بن الورد. والصعاليك اللصوص وقاطعي الطرق.. يعشق المقارنة بينهما ويضيف: على هذه الارض ارتُكِبَت جرائم باسم الثوار، فَعَلها مرتزقة ولصوص وزعران وبلطجية والثوار منها براء.

وكل ثورة، منذ ثورة الصعاليك، عناوينها ثوار أخلاقيون قديسون متصوفون معطاءون، يتعلق بها المرتزقة والأنتهازيون والوصوليون والمندسون، إنها ليست طهرا تامًا، ولا تخلو من المرتزقة والأدعياء والكذابين واللصوص والجواسيس والعملاء، رغم أن عناوينها

الوضّاءة هم الأبطال والجرحى والأسرى والشهداء.

هنا؛ إنبرت له الفتاة، جادلته: وأنت تحكم علينا أننا وحدة واحدة وتتهم كل الأكابر أنهم بقايا إقطاع عميل للإستعمار.

كان قليلا ما يقول: بل أنتم أبناء ذوات، وأنا أحب فيكم بنات الذوات.. ثم (ينفلق) ضحكا.

ويضيف: بنات الجبناء، اسمعي ما قاله الفيلسوف: إن الثورة يصنعها العبقري ووقودها المغامر ويقطف ثمارها الجبناء، والذين أمضوا حياتهم في السجون والنضال، لم يجدوا وقتا للدراسة وأصحاب الشهادات العليا هم أبناء الأكابر، ويقهقه.

ويضيف: أنا هنا أعلن أن معظم حملة الشهادات العليا..

تنظر إليه مستنكرة.

يتراجع، قائلا: مزورون، ما لم يكن هناك لهم أبحاث وإنتاج علمي وإبداعي، جلّهم محميون لأنهم من الطبقات العليا: مكتوب على خلفياتهم "ممنوع الإقتراب".

ويعلو صوته: أنا الوحيد اشتمهم، وأقذف شهاداتهم، وأقول: أظهروا تفوقكم وأبحاثكم وعلمكم في واقع الحياة.

ويضيف: أتعلمين أنهم يحملون الشهادات من أجل العمل الوظيفي، وليس من أجل العلم؟!

ويهزها، قائلا: أيهم تنعكس الشهادة عليه؟ تعالي معي إلى أجمل قرية زراعية، مثل: بتير، الفارعة، قرى جنين، قرى اريحا والأغوار... الخ،

كيف لي أن أميز أن هذا مهندس زراعي؟

من الحديقة امام بيته؟ وهل البعرة تدل على البعير في عالمنا العربي؟

يجيب: لا يا سيدتي، تدل مظاهر البذخ على الغنى والأرستقراطية المصطنعة من المظاهر الخارجية لبيوت الاثرياء؛ من حجرٍ أحمر وأعمدة ومقرنصات وفن العمارة.

ويزدري، قائلا من برة رخام ومن "جوة" من الداخل" سخام!

يسألها: لماذا لا نستطيع أن نعرف الرجل من علمه أو من شهادته؟ ولماذا لا تكون الشهادة بعرة تدل على البعير؟!

قد يكون أمام بيته الأسوأ،

من يقول: "ان بيت النجار مخلع ورداء الخياط ممزق"..

جذبها الخنفشاري: تعالي إليّ، فأنا في أوج غلياني.. قبّلها، وأكمل: يا وجعي كم أحلم بالغرير؛ أفضل عربي يؤسس للقبيلة الفاضلة، ينفض

التخلف والعصبية.. أنا من الحالمين بغد لا فقر لا جوع لا موت للشبان، إلا بعد بلوغ عمر مديد..لا احتلال، فالاحتلال أسوأ ظاهرة في التاريخ؛ تسلب الحريات وتنتهك الإنسان.

أتعلمين! أحب ثوار العصر الحديث من أبي عمار، إلى أبي جهاد، إلى أبي إياد، إلى أبي ميساء، إلى أبي النوف، إلى أبي علي، إلى أبي يوسف النجار... الخ.

كانوا رائعين وثوارا بأسماءٍ حركية، وعندما أعلنوا عن أسمائهم مرمزة بالعائلة الحقيقية فقدوا إحترامي لهم.

كانوا ثوارا حقيقيين، أصبح البعض يحتمي بالعائلة وكأنها ولدت له شرفا لم ينله بالثورة..

ليس الجميع، ولكن على ما أعتقد "فقدوا شيئا كثيرا من شرف الغرير".

كان الكاتب يوليها منتهى الإستماع.

همست: هذا هو الرجل الذي فقد معطوبية الرعاع، ودخل في صلاة تأملية، يتجه إلى محراب الإنزواء، إنه مثقف يتحد مع أضداده ويصب تناقضاته في إناء الوعي مرة واحدة.

إلى حد الجنون خارج العصر وداخله أحلامه الجارفة وأفكاره الغريبة ثورية ومتحررة.

يعود دائما إلى فلسفته الخاصة به "دع الحياة تعيش فيك".

كان يردد كلمات لا أفهمها، ويسحرني غموضها:"الكون كله داخل الإنسان".

يغضب ويصرخ: الماضي تفسير لنا، والمستقبل وَهْمٌ نبحث عنه، واين نحن من الحاضر؟

لم يدعها الكاتب تكمل، وسأل: كيف ذلك؟ قالت: أرجوك دعني أتكلم، وأنا لا أحب الأسئلة التي تقيدني..

الخنفشاري طالب جامعي في سنته الأخيرة يدرس الكيمياء بتفوق، يتحد مع رحلاته إلى زيتا مكان الزاوية الصوفية لجماعة "الخلوتية" المتصوفين، الذين إختاروا مقرهم في تلك القرية. ليجلس شيخهم القواسمي؛ صاحب الولاية، رجل له هيبته الخاصة.

يصفه الخنفشاري: يضيء وجه شيخ الطريقة، ويشع منه النور رجل موثوق من أتباعه، يلتفون في حلقة ذكر حوله، إنهم من عالم آخر، كم حسدهم وحلم أن يكون واحدًا منهم.. إنهم الطهر بعينه؛ فيهم النقاء، وتخلصوا من دنس الرغبات.

يحاول طوال أسبوع، ولكنه ينحدر انزلاقا مرة واحدة.. يرفع يديه معلنا أن لا مقاومة لجاذبية الشهوات.

الإعتقال

أضافت: يحلم رجلي بالثوار العالميين، مثل: أدهم الشرقاوي، سليمان الحلبي، عبد الكريم الخطابي، عمر المختار، عبد القادر الحسيني، سلطان باشا الاطرش، جون جمال، نيلسون مانديلا، جيفارا وغاندي.

ثوار، صفة غالبة رغم التنوع في الأساليب والافكار.

ينخرط في نشاط سري، تشك فتاته إنه كذلك.

اخبرت الفتاة الأرستقراطية الكاتب أن "الخنفشاري في احدى لياليه معها، أنشد أشعارًا صوفية وهو ملتحف، ومن ثم عدل جلسته وبدأ ينشد اشعارًا ثورية.

قال : أتعلمين!

أنا فلاح؛ أطير بروحي فوق حقول القمح وأعبث بالسنابل كل ليلة، وأعشق تراب الارض.. وفي البقعة، وهي أرض تربتها حمراء كالحناء أتمرمغ وأصهل كخيل البراري.

وفي طريقي إلى الحقول أمر بشيخ الصوفية، فأقبل يديه.. إنهما مثل لمسة الفراشة واللون المخملي مكسور على طرف عمامته، ذات اللون الأخضر

obeikandi.com

الخجول.

نظرته الطيبة، والحادة، تجعلني أتأرجح في مشيتي وأنا اضع قطعة الحلوى التي ناولني إياها في فمي، أنا ما زلت ذاك الطفل؛ لم أكبر.

قال: إن الثوار، كما المتصوفين، لا يختلفون عن بعضهم إلا قليلا، ما بين النفس القلقة وبحثا عن النفس المطمئنة.

وإن فرانتز فانون؛ الإسم الذي ظل يحتلها وهو فيلسوف وطبيب أسود من جزر المارتنيك خدم خلال الحرب العالمية الثانية مع الجيش الفرنسي ضد النازيين، حارب مع الثورة الجزائرية، وعندما جرح بعث إلى أمه برسالة، لكي يعرّفها بالحقيقة: إنه يحارب من أجل أناس معظمهم يصطفون مع عدوهم، وأنه لا فخار أن يحارب من أجلهم، ولكنه يريد أن يحارب.

لم تفهمه كثيرًا، ولكنه سحرها بعباراته وبحثت مطولا ما بين عباراته.. إنه يحارب من أجل أمة لا تستحق، حاله حال فانون، علما بأنه من شعب مليء بالأمراض الاجتماعية والتخلف والقبيلة والجهوية ووو.. إلى أن غاب يوما، فبحثت عنه، وعرفت بعد اسبوع أنه قيد الاعتقال لدى المحتلين.

تعرفت على منظمة الصليب الاحمر، التي تزور المعتقلين السياسيين وأصبحت المنظمة من برنامجها اليومي، علها تسمع عنه خبرًا.. ازدادت

به إعجابًا، وأضحت فخورة به.

اكتشفت أنه خارج كل الطقوس..أحضرت كتب فرأنتز فانون علها تجد إجابة واحدة.. كانت تعتقد أنه أحد علماء الصوفية، ولكنها وجدته ثوريا".

شعرت بسحر غموض الخنفشاري وطقوسه وأفكاره.. إنه يبهرها أكثر.

أكد الخبر اليقين أنه معتقل في سجن المسكوبية في القدس، فقررت أن تزوره لتتعرف إلى المسكوبية.. وصلت إلى المبنى المسكوبي، أي الروسي، والذي تسيطر عليه الشرطة الاسرائيلية عليه وحولته إلى مركز تحقيق ذي سمعة قمعية رهيبة.

وكلما سألت السياسيين يشرحون لها، يزداد اعجابها بالخنفشاري، وتتذكر كل عباراته الصوفية والثورية والصعلوكية، واغترابه وانسجامه واتساقه مع ذاته، وكان يشكو من أن الفراغ يملأ داخله.

تصاعدت لديها الأسئلة وبدا عليها السرور واضحا تماما عندما أخبرتها مندوبة الصليب الاحمر، أنها ستزوره الأسبوع القادم وممكن ان توصل له ملابس داخلية.

ذهبت إلى المتجر واشترت أفخم الماركات، نظرت اليها موظفة

الصليب الاحمر، ضاحكة: إنه لا يحتاج هذه الألوان؛ لأنهم يمنعونه من الاستحمام أسابيع عدة، قد تصل إلى أشهر، وهو بحاجة إلى ملابس قطنية؛ تمتص العرق، ولونها أزرق داكن لأنها ستتسخ فورا من الإعتقال، وهو ما زال في الزنزانة.

بدأت تهتم أكثر وأكثر، وقد شعرت بسخط احيانا على الخنفشاري لأنه لم ينظمها في المقاومة، تتبعت أخبار السجن والاعتقال والتعذيب والصمود.. عرفت ان رجلها يدخل حرب الإرادات مع المحققين وأدوات القمع والسجن والترهيب.. كانت تخفي علاقتها به عن محيطها الأرستقراطي، ولكنها بدأت تتحدث عنه في العلن وتلتف حولها الأرستقراطيات او بنات الأكابركما يسميهن رجلها، يتمتعن بحديثها المملوء بالمغامرة.

اكتشفت أنه ليس مغامرة، وأن الخنفشاري ليس نزوة. بل دخل كيانها وأضحى جزءًا منها.. إنها تحبه إلى حد لا متناهي.

ها هي أخيرا تقابل أمه، التي يحبها بكل جنون، تجدها عجوزا" فلاحة طيبة جدا بريئة من كل ما يفعله ابنها.. احبتها؛ لأنها نموذج طيب ممتلئة بالبراءة، لحد أنها اعتبرتها غلبانة، ترتدي نفس الثوب الفلاحي المطرز بقطب جميلة من خيوط الحرير؛ إنها أثواب الفلسطينيات التراثية.. حادثتها مطولا وضحكت كثيرا عندما كانت لا تفهم لهجة أمه، وأمه أحيانا تقول لها: يا إبنتي إحكِ معي عربي.

لم تعرف من يجب أن تتكلم مع الأخرى عربي، وهذه اللهجة الفلاحية الثقيلة الفهم عليها كما لهجتها المقدسية صعبة على والدته العجوز، وخاصة عندما تمزجها ببعض الكلمات الإنجليزية أو الفرنسية، وتتذكر كم عنفها الخنفشاري على ذلك.

لما كنت تقول لها يا تيتة، أو ياaunt بالإنجليزية أو ميرسي.

كانت أمه العجوز تلفظ كلمات غريبة عليها أحيانا.. بدأتا تتوافقان، علما بأن العجوز أولا كانت تتحدث عن ابنة أختها؛ خطيبة ابنها، قد قرأت فاتحته عليها.

قررت أن تأسر قلب العجوز، فأغرقتها بالشوكلاته والهدايا، واشترت لها وشاحًا أبيض يشبه طرحتها، وقدمت الساندويتشات باللحمة والدجاج .

لم تحب العجوز ما يسمونه البيتزا نهائيا .

في أول زيارة للسجن دخلت هي والعجوز.. سألها السجان: من أنتِ؟ قالت: خطيبته.

كادت العجوز تفضح الأمر، ولكن نظرتهاالمستعطفة منعت ذلك.. دخلتا إلى ممر تم تفتيشهما فيه من قبل سجّانات جلفات جدا بطريقة خشنة وألفاظ وشتائم نابية.

وبعد ذلك أُمِرتا بالأنتظار. توقعت أن الأنتظار دقائق، ولكنه استمر ساعات.. كانتا قد انطلقتا في حافلات الصليب الأحمر الساعة الخامسة فجرًا، وكانت الساعة قد أمست الثالثة عصرا، وهما تنتظران..

أخيرا نادى السجان من مكبرات الصوت على أسماء الزوار وأسماء المعتقلين، وسمعت إسمه، فأمسكت بيد العجوز وسارتا نحو غرفة الزيارة، كانت تنوي معانقته، لكن السياج والشبك حال دون ذلك تماما.

إنفرجت أساريرها عندما رأته قادما مرتديا ملابس السجن قميصا" برتقاليا" وبنطالا" بنيا" داكنا"، وبدت عليه آثار التعذيب، وجهه الأصفر وعيناه الغائرتان.

مدت رؤوس أصابعها إلى الأسلاك ولامست رؤوس أصابعه.. اعتراها فرح غامر طمأنها أن الأيام الصعبة من التحقيق أنتهت، وأنه موقوف لحين المحاكمة، وإنه لم يعترف بشيء مظهراً كبرياءه لها.

أخبرته كيف تحضر له طعاما، فضحك وأخبرها أن تستعد لتهرب اليه السجائر.

تعودت على إشغال السجان من المعتقلين، تناوله سيجارة أو قرن فلفل، أو حبات بهار تحسن قهوة السجن الرديئة، أو مسحوق نعناع يخفف وطأة الشاي الماسخ، كما ينقل رجلها شكر المعتلقين لها.

بدأت تمد يدا مذعورة لتأخذ رسالة "الكبسولة"؛ وهي رسالة تكتب بخط صغير على ورق شفاف، يتم لفها بإحكام وتغليفها بالنايلون على شكل كبسولة دواء..أخبرها أن تحتاط في حال شك فيها الحراس، عليها وضعها في فمها، وإذا ما اكتشفوها وأمروها بأن تفتح فمها، عليها أن تمزقها بأسنانها وتبتلعها، في حال ذلك ستعطى جرعة إسهال وتجبر من إدارة السجن على قضاء حاجتها على أرض زنزانة واستخراج الكبسولة، ومعرفة الأسرار التي قد تؤدي إلى مزيد من التحقيق والاعتقال.

تخريبها " الكبسولة" بالأسنان يسمع لعصارات المعدة بإتلافها وإزالة الكتابة ايضا.

وتعلمت كيف توصل الرسائل، بعد بلعها وإخراجها سليمة، وغسلها ورش العطر عليها، ومن ثم إيصالها إلى الاشخاص الذين يخبرها عنهم.

أو وضعها في " نقطة ميتة" وهذه كانت تثير فضولها واحتجاجها.. تعرفت إلى النقطة الميتة؛ فهي فتحة في جدار او زاوية لشارع، يتم الاستدلال عليها بإشارة أو عامود كهرباء، أو يافطة لشارع.. بداية العثور على هذه النقطة شاق، ولاحقا أضحت محترفة جدًا، حيث تزيل الحجر من الجدار وتعيده كما هو، ولا يشعر أي فضولي بذلك..

أخبرته شعورها بأنه لا يثق بها. فأوضح لها: ان تتحمل وزر الاعتراف من الآخرين وسجنها للتحقيق معها؛ لتعترف عليه، ومدى صعوبة ذلك، وان أهم ما في العمل الثوري الاستمرار وليس الانكشاف

للاعتقال.

تكررت زياراتها إليه كل أسبوعين، وأنتظمت، وكانت تستعد لها جيدًا. إلا أنها كانت، أحيانا كثيرة، تذهب إلى السجن وتلغى الزيارة في آخر لحظة؛ تحت وطأة معاقبة السجناء أو لأسباب أمنية كما يدعي الاحتلال غالبًا، وتعود محبطة حانقة على الاحتلال وأفعاله.

obeikandl.com

شخصيات العنوان.

تحدث الكاتب، قائلا: لم أبتدع الخنفشاري ولا صنعته من أهوائي، ولم يكن عالقا في أضغاثي مع بقايا حلم، ولم أوجده من العدم، ولا استحضرته من عوالم أخرى..

الخنفشاري ليس أسطوريا ولا بطلا خارقا، ليس من العماليق ولا شبيها لعوج بن عناق. ربما يكون أحد مغرمي ظريفة الطول، أو تائها في قداسة عنات آلهة الخصب، أو حلما ومحض خيال، بل إنه والآخرون ليس أكثر من تلفيق لأشخاص حقيقيين يتجولون في المحيط،

لم أبتكرهم جميعا ولكني غيرت أسماء بعض الموجودين بكثرة، ربما هم من تعتقدونهم أيها القراء الأعزاء أو ليس من تعتقدونهم. او قد تكون أنت احدهم، وتختار شخصية رائعة تشبهك، أو قد تتهم شخصا لا تحبه بأنه أحد هؤلاء المتحركين في ظلال الخنفشاري .

قالت له:ماذا تقصد بالخنفشاري؟

أجابها: الخنفشاري هو البحث عن معنى ومضمون ودلالة ورمز لهذه الكلمة من القارىء ليجد في النهاية تعريفا خاصا ليس في قواميس اللغة .

قالت: أتعني أن حروفه قد اتسمت بالغموض المتكشف، حيث حرف الراء الخجول يصبغ دفئا على هذا الرجل الصلب، متحدا مع غموض الشين ومتراقصا مع الفاء لهذا الرجل الذي كان يقول: أنا كالبسطامي كثيرا، أرى العالم يطوف حولي.

قال الكاتب: أنت تعطينني ميزات الرجل، وما أريده أن لا يكون صورة سريالية لهذه الرواية، أم للعربي القلق وغير المتزن وغير المنسجم، مع إنفصام في التفكير وعدم القدرة على أن يتحول إلى إنسان عادي، وكذلك تأثير التخلف على هذا الإنسان والذي يعاني من المعلوم ومن الاغتراب وتحدّره نحو المجهول.

أجابها: ممكن أن تكوني مصيبة وهناك أغلفة بثنايا غير المفهوم أحيانا في الحالة الماثلة، لأن في طياتها تلابيب مضللة رغم أن الوهم منقشع بسطوع الحقيقة، ولكن المفاجئ هو قوة النهوض للإنسان المحطم والمتهالك، يصدمك ويضعك في دائرة الشك، وبالكاد تنصاعين لتصديق ما ترينه ويغرقك بمزيد الأسئلة.

وأضاف الكاتب: قررت أن أكتب عن هؤلاء وحكاياتهم، وقد تتعسّر الكتابة أحيانًا؛ لأنها ربما تكون آتية من صفاء ذهني، أومن ذاكرة دبقة، ولا آبه من قناع الكلمات أحيانا كثيرة، فأتركها على طبيعتها الرثة فلا تأتي كما أردتها او تأتي.

وتابع قائلا: وكنت قبل احتراف الكتابة كمن يرسم على الرمل، وتهب

عواصف الأحداث لتتزاحم في الذاكرة، لتمحو جزءًا وتبقى بعض الصور الباهتة، وأنا أعيد إحياءها الآن، كنت قد تمعنتهم تمامًا، فأثارني وجودهم في الدائرة ، في نقطة واحدة حيث خط وهمي ما بين نقطة البدء والخاتمة، ما بين قول الخنفشاري أن الماضي هو تفسير والمستقبل وهم، وما بين الاشياء التي تعلمتها من نبيل وشحنني بها الخنفشاري.

سأَلَتْهُ: ولمَ أنت بالتحديد؟

أجاب: لأن القراء يحتاجون إلى كاتب، والخنفشاري ونبيل وأبو خديجة والأرستقراطية والبروفسور وأنت تحتاجون إلي انا كاتبًا وراويًا..أنها محاولة لكتابة جزء من الحكاية الفلسطينية والتي تعيش وترزح تحت الاحتلال، فيها رائحة المقاومة وعهن الإستسلام، رائحة الثورة وطعم الإرتزاق، رائحة الأحلام العربية الكبرى ذات المذاق الإنساني، ومايسحبهانحوالقنوطوالإحباطوالتمركزحولالذات.
إنها محاولة للكتابة عن العذابات والمعاناة ما بين الجسد والروح، ما بين العاطفة والأحلام، بين الإيمان بالنصر والكفر بالثورة، بين العناوين وبين الهوامش، إنها بكل طوفان أحلام قد تكون هشة أو صلبه لثوري محطم.

ليقص حكايتكم كما يريدها هو، وكما تعلمين ليس لأن جوائز نوبل تمنح للروايات بل لأنها تحرس الحكايات وتربتها بقليل من الأحلام والخيال والوجدان.

وهمست أحلام، أو كما سماها "المرأة الغامرة"، لم يسمعها، صرخت على الكاتب: أيها الراوي خذني إلى داخل قلوبهم.. إلى مشاعرهم وطغيان الأفكار.. إلى رؤياك وإلى تحليلك لشخصياتهم وإعادة تركيبها، إلى عالم الفنتازيا والخيال والصور.

خذني إلى المتناقضات الصارخة، بعدما أضحت المدينة مكانا باردًا وبائسًا.

وقف مناديا بأعلى صوته: يا أيها الحاضر فينا.. أيها الماضي.. ويا أيها المستقبل..

انتظر قليلا، وأعاد المناداة: يا أيها الخنفشاري.. لم يجبه أحد.

تحرك قليلا نحو الشرق، وهبط قليلا، وصرخ من قحف رأسه بصوت مجلجل: يا خنفشاري.. يا أيها الخنفشاري.

صمت وأنصت؛ علّه يسمع مجيبا، فلم يأته سوى رجع الصوت.. أعجبه الصدى وأعاد مناداته، فسمع ارتداد الصدى؛ يضرب بطون الجبال ويعود إليه. رد الكاتب: إلى أين آخذكم معي.. إلى هدير كلماتي، ووقتها وطيفها المرسوم في قلب الحكايات؟!

وقف صارخا بأعلى صوته، مناديا نبيل: يا نبيل.. صمت، فجاءه رجع الصدى.. تحرك من مكانه نحو الشرق، صرخ بأعلى صوته مناديا اسماء مختلفة، جاءه رجع الصدى فصم أذنيه.

جلس ما بين المسافتين؛ واضعا رأسه بين يديه، صرخ بصوت مخنوق: لا فائدة لإنكسار الروح! لا فائدة! لا يوجد! بل يوجد فوائد!

سار إلى الأمام لكنه التف في مسار دائري، وجد أنه يدور حول نفسه.. تراءت له تلك الفتاه الغامرة التي تطارد يقظته ونومه وسؤالها الذي يحتل كيأنه ويؤرقه.

لم ينتظر منها سوى أن تكون بثًّا جماليًّا صاخبًا.. تراجعت صورتها الساحرة وبقي صوتها.

وبقي الكاتب يبحث في جعبته عن إجابات حول الخنفشاري، وعن المرأة ذات النظرات الغامضة، وعن نبيل، وتماهت كلها إلى أسئلة عميقة.

نهض، وقرر في يومه هذا أن يسبر أجوبته.

سار للأمام، وأنتبه بعد مضي ساعة أنه عاد إلى موقعه الأول دون ان يشعر، توقف وخاطب نفسه كيف ذلك؟ اكتشف أنه يدور في حلقة، في دائرة.. من أين يبدأ، وأين يتنهي؟ جرب ان يعرف أين البدايات، صرخ وضحك،

وقال: ها أنا هنا مكاني أعود من حيث بدأت، وتساءل : هل هي حلقة مفرغة؟ احتلته مفرغة، وما الفرق بين حلقة مملوءة أو ممتلئة او مفرغة، أو أنه في دائرة، أو دولاب.

obeikandl.com

تراءت له تلك الفتاة الغامرة، ذات النظرة الغامضة، وهي ليست غامضة بل أحب هو ان تكون كذلك، او تخيلها كذلك، وهي تسأله: ما بك تنعم النظر؟

فقال: كيف لي أن أكتب عن النساء الجميلات، أم تريدينني أن أعبر مارا بلا تأمل؛ لاستفزاز هذا الجمال الساحق المسكون في عمق غموض نظرات عيونك، وانجذابي لابتسامتك على الشفاه الحائرة؟ أنا مستعد للتوقف أمام هذا السحر؛ بلا حراك، سوى التقاط أنفاسي وحروفي إن تمكنت.. لا أدري!

أنت أحلام الفتاة الغامرة، يحتلك الجمال الأخّاذ، فخجلت واحمرت وجنتاها.

أحلام الفتاة وأحلامه اجتمعتا لتطاردانه، ليل نهار: صورتها.. صوتها.. أسئلتها التي لا تنتهي، ولكنها تعود إلى نفس السؤال.. تغيب صورتها ويبقى صوتها: رنّانًا، هادئًا، ساحرًا؛ ففي نغماته سحر غامض، يحتله احتلالا لا فكاك منه..

تساءل"هل يحبها؟" ، أم أنها تطغى بحضورها وزخم الأسئلة؟ أم أعجزته الإجابة، وهذا ما يؤرقه!

كم مرة خاطب نفسه: آه لو أنها فتاة عابرة ومرت بلا أسئلة!

أنواع الثوار.

تعرفت الفتاة على أسرِ وعائلات المعتقلين ومعاناتهم، ولاحظت أن معظمهم من متوسطي الحال والغالبية من الفقراء، كما لاحظت أنّ فئة الطلبة هم الأكثرية.

كانت كلمات الخنفشاري ترن في أذنيها:الفقراء هم وقود الثورة؛ لأن ليس لديهم ما يخسرونه، وكذلك المنسلخون طبقيًا.. توقفت في جدل طويل ونقاش ساخن حول عباراته، وخاصة المنسلخين طبقيًا، رغم أنه شرحها لها مطولا، أكثر من مرة، والآن تدرك عمق العبارات وتصد عن أفكارها تصديق ذلك، ولكنها في مرحلة شكٍّ مريب!

تعرفت خلال زياراتها المتعددة للسجن على أنواع المعتقلين، وأنتماءاتهم السياسية.. من وراء الشبك، هم متماثلون في ملابس السجن؛ من القميص البرتقالي والبنطال البني الداكن.

أما في الجانب الآخر، حيث تقف هي، فاختلاف في المظهر ما بين البساطة والفقر، رغم أن الملابس تبدو محتشمة لجلالة الموقف، إلا أنها بحسها الأرستقراطي تبينت الفروق..

خلال الانتظار الطويل، الذي تفرضه سلطات السجن من الحضور

في الصباح الباكر، والأنتظار لما يزيد عن ست ساعات وأكثر، وأحيانا تلغى الزيارة في آخر لحظة، صارت تركز على الماركات، فعرفت الملابس وتكلفتها العالية، وعرفت أبناء الأكابر كما يسخر منهم الخنفشاري؛ يصطفون على أبواب الزيارة.

تقربت إلى الكثير من نسائهم. كان البعض يتحدث، على مضض، بعدما يشعرن بالراحة ويلومونهم على إيمانهم بالثورة، ويتأفّفن بأن أبناءهن تورطوا، عكس الفقراء الذين يتفاخرون ويعتبرون أنّ هذه ضريبة الوطن.

قررت مواجهته واستفزازه قائلة: أعتقد أن كثيرا من الإنتلجنسيا موجودون بينكم..

أعتبر أن هذا السؤال استنكاري، وهّز رأسه نافيا وأضاف ضاحكًا: ليس لهم مكان هنا، أنهم يمرحون هناك.. أشارت إلى أكثر من سجين، قائلة له: هذا من أولاد الأكابر، وذاك وغيره، وهي تعرف من كثرة الزيارات أنهم من قيادات السجن.

أدار رأسه نافيًا بشدة مبديا غضبه.. عندها أشاحت رأسها عنه، وقالت ساخرة: أنظر حبيبي هؤلاء وقيادتك من الإنتلجنسيا"حسب عباراتك"إنهم أبناء الأكابر المتعلمين.

سألها: كيف تحكمين أنا أعرفهم. قالت: أنظر إلى الملابس. أجابها بدون

أن ينظر: كلنا نلبس نفس ملابس السجن.

قالت ساخرة: مرة اخرى يخونك ذكاؤك.. أي ملابس سجن! انظر إلى ملابس الزوار.

أضافت: أنا أميّز الماركة والنوع والثمن.. من نظرةٍ أُحدّد، ومن لمسةٍ أتاكد من نوع القماش. وماركة زوجة رفيقك ترتدي من أغلى الأثمان؛ صوف إنجليزي حبيبي. وانظر، مشيرة إلى أم احدهم: ملابسها فرنسية، وهي أغلى من مجموع ملابس الزائرين.. وضحكت.

صمتت.. نظر إلى أهالي السجناء وقال لها: أول مرّة أنظر لأفحص ملابس أحد.

هزت رأسها مسرورة بنصرها، وقالت: حبيبي، لقد تأكّدت أنّ قياداتِك هنا هم من تدعي أنهم الإنتلجنسيا، وهم وطنيون.. اعترف حبيبي أن أفكارك حاقدة، ليس إلا.

صرخ بصوت هامس: لا، مستحيل.

قالت: إن البشر ليسوا كيمياء ومعادلات ورموز وأوزان ذرية وكتل، بل إنهم بشر؛ مشاعر وأحاسيس وإنتماء، لا يختلفون عنك.

شعرت كم دهمته بحديثها المزلزل.. نظر اليها، سائلا: من منهم أبناء الكبار؟

أشارت إلى سجين متكوم ورفيع تبدو عظامه بارزة، كأنه مصاب بالسل، ونظاراته ذات زجاج سميك قائلة: هذا إبن أثرى عائلة.

قال نافيًا: مستحيل هذا الرجل يساريٌّ جدًا، وواعٍ ومعادٍ للطبقات، وأُعتبر أنا معه"يمين".

قالت: أنا متأكدة أنّ مستوى عائلته مثل عائلتي، ماليا" وتاريخيا"؛ لأن التعرف على الموضة تربية خاصة، وطقوس ومعرفة بالماركات ونوعيتها.. والدته ترتدي أفخم وأغلى الملابس والحلي، وخاتمها الماس يزيد ثمنه عن عشرة آلاف دولار.. دقّق في نوع ملابسها وثيابها، فهي من أعلى وأغلى الأثمان.

قال، غير مصدق: لا، أنت تستفيزيني فقط.

قالت: أنت مكابر فقط، تعتبر أن عباراتك مقدسة أنا كسرتها، على كل ممكن أن تسأل وتعرف صدقي.

هز رأسه مستسلمًا: في زيارتك القادمة يكون الخبر الأكيد.

انقضى ما يقارب الشهرين حتى تمكنت من زيارته.. كان يملؤها الشوق، وتنتظر أن تملأ عينيها من رؤيته.. كم تمنت زوال هذا الشبك لتعانقه، وتذوب بين يديه.

ابتدرها قائلا: اسمعي، كل ما قلتيه صحيح؛ أنه من أبناءأثرى أثرياء

البلد وصمت،

وأضاف: لكنه.. قاطعته: منسلخ طبقيا.. ضحكت، وأضافت: حب الوطن ليس انسلاخا طبقيًا.

أريد أن أخبرك عن أشياء لا تعرفها أنت، أو تتجاهلها عمدًا، لأنني أشعر أحيانا أنك كما الساعة؛ معبأ لترن حسب الوقت، الشباب والعمر يحدد درجة الإندفاع والإنخراط بالثورة أوالتعاطف معها، وهذا يحدد أين أنت بالضبط. وغدًا، عندما يسير بك السن، ستنكسر جذوة ثورتك، مع أنني أعشق نزقك المجنون، وضحكت.

تفحصت رفاقه في الزيارة، فوجدت أن رجلها هو الأفضل والأحب إلى قلبها؛ نموذجا مختلفا..

تحدثوا؛ هو وأمه وهي، وانقضى نصف الساعة بسرعة البرق.

النبيل.

نظر الكاتب إلى ساعته، فوجد أن الوقت يدهمه؛ سيتأخر عن ملاقاة صديق محاضر جامعي ، أطلق عليه لقب "البروفسور"، قرر أن يخبره عن أسئلة أحلام الفتاة الغامرة عله يجد إجابات مقنعة.

فجأة، نهض ليلحق بالحافلة.. صعد إليها بسرعة.. تاه في أفكاره.. توقفت الحافلة على حاجز احتلالي، فأمرهم الجنود بالنزول من الحافلة، وهناك في كمين خلف سواتر رملية أمر الجنود الشباب برفع ملابسهم، والكشف عن صدورهم، ونادوا على كل واحدٍ، فناولهم هويته الشخصية ودقق الجندي في وجهه..

ناولها للجندي على اللاسكي، فأرسل يستفسر، وأمرهم بالجلوس؛ بعيدا عن الحافلة.. بعد حوالي الساعة، أحضر بطاقات الهوية ونادى على الأسماء؛ بلكنة غربية مكسرة، لم يفهم عليه الكثير، وهو يصرخ ويشتم إلى أن تقدّم أحد الواقفين وحادثه بالإنجليزية، وأخبره أنه لا يلفظ الأسماء بشكل مفهوم، وطلب أن يناوله كل بطاقه وهو يقرأ الإسم..

نادى على ثلاثة شبان، وأمرهم بالجلوس على الأرض؛ بعيدًا.. أعطى الهويات للرجل وأمرهم بالابتعاد.. اندفع الجنود نحو الشباب، وأمروهم بالكشف عن صدورهم؛ وفتشوهم بدقة، ثم كبلوهم

واقتادوهم إلى مكانٍ ما.

هذا الحدث عكر مزاجه، لم ينتبه إلا وسائق الحافلة يقول له: يا أستاذ وصلنا ، التفت لم يجد أحدا من الركاب، نزل بسرعة معتذرا، وتوجه نحو كافيتيريا كلية الطب، حيث التقى نبيل المرة السابقة.

سأل نفسه: آه قد تكون عند نبيل إجابة على سؤاله؟!أو لدى الخنفشاري صديق نبيل؟!

صمت الكاتب برهة، وتذكر ما قاله عنه الخنفشاري: أما نبيل فهو ذروة الإنهيار وحطام رجل، نحاول لملمته؛ فقد سحقته امرأة عاتية لا ترحم، فتركته يطلب الموت مرات ومرات.. لم ينسحق وهي تبادله الحب، بل رمته على قارعة الوَلَه، ونحيط به من كل حدب وصوب نمنعه عن الموت عشقا لوهم امرأة.. التيه هو الطريق المحتمل له، أن يكون على هامش الحياة، أو في عالم المنسيين والمهشمين، أكثر ما يتنبأ به أفضل العارفين له ولقدراته.. هو الطالب القادم من قريته الشمالية إلى جامعة بيت لحم.

هذه القرية الزراعية التي تجلس على الطريق العام ما بين مدينتين، ملتحفة نصف الجبل على صدرها الأبيض المزركش ببيوت بيضاء حجرية، من الحجر الأبيض الناصع، المستخرج من كسارات تسمى "سور معين"؛ وهو اسم، ليس لرجل، بل لعينِ ماءٍ صافيةٍ تماما.

ترتدي هذه القرية إكليلا من اللوز، على رأسها المسنود على رأس جبل شاهق قليلا، وتمد رجليها داخل ردائها الأخضر؛ ثوبا زيتونيًا جميلا، يمتد بعيدا في السهل، ويسبر عمق المدى الرحب، وتتجمل في فصل الربيع بأزهار اللوز البيضاء والزهرية الألوان على قمة الجبل، ويتماوج مع امتداد ثوبها كعروس ذات رداء اخضر، وتنثر أزهار الزيتون الفاقعة الصفرة كغبار بهار الكركم الاصفر.

نبيل؛ من تلك القرية الوادعة، قادمٌ إلى هذه المدينة المنتشية "بيت لحم"، والتي تصوَّرها تعج بالراهبات البيض؛ لأنها مسقط رأس السيد المسيح.. جاء مكتنزًا بمعتقدات القرية، فوجد أن النساء في جامعتهاعالم آخر، بل من كوكب سماوي آخر.

قارن نساء قريته اللواتي يرتدين لباسا طويلا، لا يذكر أنه شاهد أكثر من كعب فلاحة مفلوع، وتسكنه شقوق كبيرة من المشي في المزارع، ومن حمل السلال الكبيرة على الرأس والثقل الباهظ الذي ترزح تحته النساء، ورغم ذلك فان نساء قريته مرفوعات الرؤوس. وهنا؛ لاحظ انحناء النساء، لم يسعفه الجواب الا بعد سنوات طويلة.

كما وصفها الخنفشاري: هي بيت لحم؛ مدينة تطل، ببلاهة، على امتداد الصحراء في الشرق، ولا يسحرك إلا رهبة المكان كما يتخيله القديسون والرهبان.

صدمته هذه المدينة المنتشية، طلابها من عالم آخر.. إنها في أحلامه

التي رسمها عن عوالم أخرى.. شاهدها مرة واحدة، عندما نجح في الثانوية العامة، وصحبه خاله إلى دار السينما في مدينة نابلس.. شاهد فيلما سينمائيا من بطولة الممثلة نادية لطفي؛ هذه الفنانة الفاتنة، المغرية جمالا، كم بقيت في حلمه وملأت خياله، ولم تفارقه صورة هذه الممثله الساحرة أبدًا.

مما يحكيه الخنفشاري عن القائد الثائر أبو عمار، أنه كان مختبئا في غرفة في نابلس لمدة شهر، لا يوجد فيها سوى صورة نادية لطفي وفرشة ولحاف، وهو يتواصل مع القاعدة الإرتكازية في بيت فوريك. حتى شعر أنه انكشف، فغادر. وعندما التقى ناديا لطفي مع وفد الفنانين في بيروت المحاصرة عام 1982، قال لها: لقد قضيت معك شهرًا، متواصلا، في نفس الغرفة.. خجلت نادية لطفي، واستغربت، الا أنه أوضح الحكاية فضحك الفنانون العرب والمصريون.

يقهقه الخنفشاري، ويقول: كيف فعلت نادية لطفي في نبيل!

تأمل نبيل كل فتيات القرية، ولم يجد نفورا في الأنوثة مثلها.. يومها سأل خاله، ببلاهة راكدة: هل يوجد نساء في الواقع هكذا؟!

ربطها بحكايا جدته عن الخرافيف حول "جبينة"؛ تلك الفتاه البيضاء مثل الجبنة وهي حسب وصف جدته فاقعة الجمال، فأحبها الغول. ولم يستطع الغول أن يقاوم فتنة جمالها الأخّاذ فخطفها إلى وكره، ولم يأكلها كعادته.

obeikandl.com

جبينة؛ الفتاة البيضاء، التي استرسلت جدته وصفا له ولأخوته مئات المرات، وكل مرة يحاول أن يقارنها بامرأة في القرية.. وبعد فيلم ناديا لطفي أصبح يرى أن جبينة فتاة ريفية ليس إلا.

كأن صوره تتمكن من ذاكرة هشة.

صرخ: ألا تعرفني؟

نظر الكاتب نحوه ، وقال: لا.

قال له أنا نبيل، اتذكرني؟

obeikandl.com

الكاتب وحبل الحليب.

حاول الكاتب الإجابة عن سؤال الفتاة الغامرة المستفز له "لماذا أنت؟" قائلا: أترين، إنهم يحتاجون إلى كاتب، بل روائي؛ لأن الروائيين يحصدون، دون غيرهم من الأدباء، جوائز نوبل، متعمدا إثارة أسئلة لتتقاذفها جزاءً لما صنعته به، وكي لا يضحى رهينا لأسئلتها.

أضاف: لأن الرواة يدخلون إلى ثنايا الشخصيات يفككونها ويعيدون تركيبها، ينسلون إلى العواطف يسكنون المشاعر، يمزجون أزمنتها ولحظتها الراهنة بغدها القادم، ويصبغون الذاكرة بألوانهم التي يريدون.. ينثرون عبق العطر، وينحازون لأهوائهم اللائقة، لا تستهويهم القوالب الكلاسيك، يكسرون الحبكة، ويظهرون خفايا الشخصيات وقلقهم المسكون في حروفهم.

أكمل، قائلا: الأسئلة تسببت في مجيئي إلى مناطق أجهلها في مشاعري.

أتعلمون قد تكون الفتاة الغامرة أحلام وسؤالها الإفتراضي.. مجرد هواجس!

وقد تلتقي إحداهن، لا تغادرك إلى الأبد، وتتكاثف الأسئلة.

لقد التقيتها وهالها حديثي، وقالت: رغم سعة اطلاعك، هل تعرف

نفسك؟ ضحكت وقلت: طبعا. قالت من الشخصية التي تعرفها جيدا؟ قلت، بلا تردد: أنت أيتها الفتاة الغامرة.

ضحكت مطولا، وقالت : أنت واهم، فأنت لا تعرف نفسك ولا تعرف الفتاة الغامرة، هل تعرف شيئا عن جبل الجليد؟

أجابها: طبعا لا؛ فأنا لم اسكن في مناطق المحيطات المتجمدة، ولا بالقرب منها.

أضافت: إذن، تعرف قصة غرق التايتانك.

أجابها: نعم.

قالت: أتعلم أنه خدع ربان تلك السفينة. أنه جبل الجليد.

شعر بدفء حديثها، فسألها: ليس لك حديث سوى عن جبل الجليد؟!

قالت: إن جبل الجليد والإنسان يتشابهان جدًا؛ يطفو منه عشر وهو الذي يراه الناس. والإنسان يظهر منه العشر والبقية مختفية، وأنت نفسك ماذا تعرف كم عشرا عن نفسك؟

اتعلمين، لقد كثّفتِ حيرتي مع اسئلتك وأنا أقرّ وأعترف أنني لا أعرف لا نفسي، ولا ربما عشرك أنت يا أحلام يا فتاتي الغامرة. نظرت اليه، وابتسمت وغادرت.

obeikandl.com

شتمها بصوت خفيض: يا ابنة الأسئلة.. هل ينقصني مزيدًا من الأسئلة.

قال لها: أذكر كم ضحك الخنفشاري على رجل الجليد، وقال: أتعرف كم هم الثوار أنقياء ومغامرون!

في بير زيت، كان أحد الثوار، التقاه الخنفشاري في السجن يحكي قصته مع الثورة، فقد قرر تصفية عميل؛ يبيع الأرض للمحتلين، وهو عنجهي إلى حد التحدي لكل الناس،

قال:رأيته يوما يقف في تحدٍ لرجل ويشهر مسدسه عليه، ويصرخ ألا تعرف من انا؟

يحاول الرجل الابتعاد عنه، إلا أنه يعود ويهدده من جديد، ويرفع مسدسه ويقول: انا، بعد الله على الأرض، وأشكالك يجب أن تركع لي.

يحاول الرجل أن يعتذر.

يرقب الناس المشهد، خائفين؛ لأنه محمي من جيش الاحتلال.

يعتذر الرجل، ويعيد الجاسوس بأعلى صوته: أتعرف أنه يوجد مسافة بيني وبين الله فقط كهذه، ويشير أنها لا تتعدى ما بين اصبعين مشيرا بالسبابة والوسطى.

يعربد العميل.. يطلق النار في الهواء.. يشتم أم الرجل وأباه وأهله.

تحاول الناس تجنبه.

صمم هذا الشاب على قتل ذاك العميل، لكسر شوكة العملاء؛ وليشعروا أن لا مكان لهم إلا العودة والتوبة.. أحضر مسدسا ولم يكن يملك الرصاص، اتصل بمجموعات سرية كما أخبر الخنفشاري، فأعطوه رصاصا" كما يقول" مبرّد" و"غير مضمون"..

جرب اطلاق رصاصتين في مغارة، فنجح الرصاص.. ذهب إلى بلدة بير زيت، حيث اعتاد العميل القادم من أحد القرى المجاورة الجلوس على قارعة الطريق في مقهى البلدة، يتحدث بصوت عالٍ، ويمارس عربدته.

يجبر البعض على دفع" الخاوة". إذ يحتاج بعض الناس خدمة من أجل تصريح سفر أو تصريح زيارة، خشية رفض سلطات الاحتلال ذلك، ويدفعون كثيرا من المال مقابل ذلك.

مد الشاب يده إلى حيث أخفى المسدس جيدًا، وانطلق نحو المقهى.. على مقربة من الجاسوس واتخذ زاوية؛ تأكد من عدم وجود جنود.. وضع قناع على وجهه دخل المقهى.. وجه المسدس إلى رأس الجاسوس؛ فأنتابه الذعر الشديد، وبدأ يرجو الشاب، والناس ينظرون.

قال الشاب للعميل: بالأمس كنت تعربد، وتقول انك بعد الله على الارض، وأن المسافة ما بين الاصبعين بينك وبين الله.. أتعلم من هذه

المسافة، أنه أنا جئتك لاقتلك أيها الخائن القذر، ولتعلم أن الاحتلال لن يحميك.. أخذ الجاسوس يتوسل ويبكي ويقبل قدمي الشاب.

أمره أن يقول ان الجواسيس حثالة زبالة.

وقال له: هل تتوب؟

صرخ الجاسوس، باكيا: من شان الله بتوب.

ردد الجاسوس هذه الكلمات عن نفسه.

قال الشاب: أين تحب أن (اطخّك) أطلق عليك الرصاص؛ في رأسك أم في قلبك؟ وجه المسدس إلى قلبه، وأطلق النار؛ رصاصة، رصاصتين، ثلاثة.

وضع الجاسوس يده على صدره لا شيء سوى الصوت؛ (طلع الرصاص فيشنك).

نهض العميل، وهجم على الشاب.

هرب الشاب باتجاه الجامعه، فلحقه الجاسوس؛ يريد الإمساك به، فدخل الشاب إلى الجامعة..

توقف الجاسوس؛ خوفا من الطلبة الذين تجمهروا وقذفوه بالحجارة، فولّى هاربًا، وهو يطلق النار.

obeikandi.com

ضحك الخنفشاري ملء شدقيه، وهو يَشتِم ويلعلع، قائلا: ... أخت السلاح.

شايف، السلاح مخوزق، وغير صالح..

بعدها، أُعتِقل مجموعة الشاب.

قال الشاب: شايف، لو أنني نزعت مسدسه من جانبه وقتلته به.

كان كالجرذ يصرخ.. يتوسل .

قالت الأرستقراطية: وماذا؟

أضاف الخنفشاري: إن جبل الجليد هذا الجاسوس الجلمود بعد الحادثة أصبح يتندر الناس عليه..

واضطر إلى الهرب إلى اسرائيل من ألْسِنَةِ الناس.

وما رأيك، هذا جبل جليد عفن.

قالت: أيها الخنفشاري، ماذا أعجبك في الحادثة؟

أجابها: إرادة الشاب الذي قرر ان يوقف عربدة جاسوس وقح، وأضاف: أعجبني أن المسدس الفارغ أرعبه حتى الموت. وإنه لو لم يطلق النار لفاز.

إذن، هل المحتل عندما يقتل يفوز او يخسر؟!

أسئلة كثيرة تجتاحني!

أتعلمين،

لو أننا نركّز على جنود الاحتلال الذين قتلوا الأطفال والأبرياء، ونصعد أزماتهم النفسية لتتحول إلى جنون، مثلما حدث للقتلة الأمريكان في فيتنام؛ تحولوا إلى لعنة على أمريكا.. الاحتلال يجب أن يهزم في وكره أولا.

قالت الأرستقراطية: أنت وخنفشاريتك تحيرني وتربكني ما بين مفهوم ومفهوم وهزيمة احتلال، مؤمن بذلك حد الخرافة، وأشعر احيانا أنك متشكك تحتلك الظنون، وتؤمن أن النصر وهم.

يائس إلى حد الهزيمة، متفائل حد اليقين.

الإنجليز في مفكرة البروفسور المغترب

بدأ الكاتب يراجع تسلسل أحداث روايته، وجد أن ترتيبها جاء عشوائيا" ليس في سياق الرواية التقليدية، وزاد اعجابه بفوضاها، ورنت في أذنيه مقولة "فوضاي أجمل من رتابتي المؤنقة" .

هذا ما جال في خاطره عندما صرخ رجل مناديا عليه.. نظر إلى مصدر الصوت المنبعث من رجل هزيل يجلس في زاوية الكافيتريا الطلابية التابعة لكلية الطب. كان ما زال صوته وصداه في أذنيه، تمعن فيه منغرسا في الذاكرة باحثا عن صاحب الصوت المألوف.

كان قد دخل مع صديقه؛ البروفسور العائد من أمريكا ليعمل في الوطن.. اختار كافيتريا الطب؛ لأنها الأكثر هدوءًا.. تعودا الجلوس في إحدى زواياها، وكانا يتحدثان في السياسة والفكر والنساء والزواج والسفر، ويجولان على كافة المواضيع. ويمارسان التلصص على بعض الفتيات، معلقين في كل الاتجاهات، ويستذكرا الصديق الفكاهي الساخر، الذي يعطي وصفا لكل فتاة، من تعجبه يكيل لها الثناء، أما اللواتي لا يعجبنه فيتندر في أوصافهن.. يكرران مقاييسه: هذه صدرها وقع في كرشها فهي بلا صدر، وتلك وقع عجزها في سيقانها... وهكذا، وأما للفتاة المتناسقة الجميلة فيرسلون إعجابا خفيا.

سمعتهما مرة إحدى الفتيات، وهي ما سموها لاحقا جليسة السوء، والتي استرقت السمع لأحاديثهما، فراقتها ودخلت إلى خلوتهم "المعلنة"، وعبرت عن إعجابها بجلستهما، وفضحت سرهم بما سمعته، ولكنها طمأنتهما أنها ستنتقم من الرجال في جلساتها مع صديقاتها، وتتندر على كروشهم وخلفياتهم ووووو وضحكوا معا، كانت في بعض المرات تأتي وتجالسهما، ولكنهما غالبا كانا يلتقيان بدونها؛ ليتحدثا بحريتهما.

كان البروفيسور ممرورا" من النساء، يحكي عن نفسه: إنه تزوج ابنة عمه، وهي أرستقراطية المنشأ والسلوك ومتعالية حتى عليه، وتعتبره أرستقراطيا" رثا".

سافرا معها إلى بريطانيا ليكملا تحصيلهما العلمي واصطحبا الأبناء، إلا أنه عاد واعترف أن زوجته فرضت عليه ذلك هربا من الانتفاضة الأولى واضطراب التعليم والحياة، خافا ثورة الشعب على الاحتلال، ولم تتحمل حظر التجوال.

صحبها مجبرا ومنصاعا.

لندن مدينة الضباب، لم يحبها بداية؛ لأنه كره ماضي البلاد الاستعماري؛ فعلت كل الفواحش بالشعوب التي استعمرتها، بما فيها شعبه.. كان يسير في الشارع بحثا عن هذه الشواهد، واحترف شتم كل بريطانيا؛ بشرها وحجرها وحضارتها ونساءها ورجالها.. كانت تنهره، فيضيف

شاتمًا من يحب بريطانيا الإستعمارية المقرفة..

كانت تنظر اليه نظرة احتقار شديد، حتى أنه بدأ يراها بريطانية استعمارية جدا، بل أسوأ.. كان يسير في الشارع، وعندما يرى أحد كبار السن يعرج أو مصاب حرب، يشعر أنه استعماري بغيض، وقد يكون من أضاع فلسطين في وعود ساسته السفلة الإستعماريين، هذه الدولة التي بقيت تسرق العالم مدة ألف عام، وتركت آثار حقدها الدفين اتفاقيات قسمت العالم، وألهبت صراعات عرقية وإثنيه، وطقسها مليء بالضباب يحجب عجرفتها عن العيون.

قرأ تاريخها، بل عاشه في أخلاقها الاستعمارية، والتي لم يعتذر ساستها ولا مفكروها ولا كتابها ولا فلاسفتها عن تدني إرثهم الاخلاقي الاستعماري، ودناءة اجدادهم وآباءهم ووارثيهم في ممارستهم الوقحة لمبدأ "فرق تسد".

وأضاف: فرنسا اعتذرت عن تاريخها الاستعماري، بل قاوم فلاسفتها ذلك.رغم سياسييها السفلة والاستعلائيين. أما الإنجليز، فليسو وجلين من تاريخهم ولصوصيتهم وسرقة الثروات والفتك بالشعوب والقتل.. إنهم يكملون اليوم نفس روحهم الوضيعة.

اعجب الكاتب هذه العبارات، وهو يحمل مشاعر ليست أقل لهؤلاء الاستعماريين الوضيعين.

أضاف البروفسور: اسمع كنت أتمتع بما يسمى "الهايد بارك"؛ هذا المكان المسموح لك أن تقول ما تريد ضد من تريد وتدعو إلى من تريد، قصص..

إلى أن وصل في حديثه عن الليدي دايانا؛ زوجة الأمير التي أحبت عربيا، ولاقت حتفها في باريس في حادثة، يُقال أنها مدبرة، وقال: نحن العرب نحكي عنها قصص ألف ليلة وليلة، وعندما شتمتها أمام مجموعه من العرب في أحد المقاهي: بأنها مجرد عاهرة، تشبهها أي عاهرة هنا تمر الآن قد يعجبها شبق العربي الهائج.. عندئذ نكلوا بي في حديثهم وكأنني شتمت أحد الأئمة الأربعة، أو أعظم زعيم عربي.

كنت أتعاطف مع مشاعرها فقط ولأنها أحبت عربي، ولكنني تمعنت العرب القادمين إلى لندن من أجل المتعه يدفعون بسخاء منقطع النظير لقاء أن يبكوا بين فخذي انجليزية، اغتصب أباها جدهم ولوطه بمنتهى القحبنة..

تجتاح البروفسور موجة غضب.ويكمل حديثه، قائلا: أما الهايد بارك؛ ذلك المكان الوحيد الذي أحبه بخطبائه الذين يشتمون النظام والملكة ووزير المالية والنواب ورجال الدين.. ورجال الدين الواعظين يدعون الناس هذه النافذة المفتوحة للحرية، يقف فيها السود لاعنين العنصرية، ويقف ضحايا الاستعمار يلعنون مستعمريهم..

قال: وقفت يوما، وخطبت باللغة العربية: شتمت بريطانيا، وتاريخها،

ورجالها، وملكتها، واللورد كارنغتون؛ ابن العاهرة الذي حذف من قرار 242 ال التعريف، فأضحى القرار ضد الشعب الفلسطيني المقهور من آبائه السفلة، وصولا إلى حقارته التي لا تضاهى..

آخر استعماري بغيض، هذا ما اعتقدته ولأنها تفرخ، وصولا إلى بلير ومن يتبع، هؤلاء السفلة يستقطبون البعض ويحشون أفواههم بكلمات لزجة وصفراء يشيدون بالغرب وديموقراطيته، هؤلاء المزوّرون يحمدون أوروبا ليل نهار وينتظرون منها الفرج، وأنتقلت من تاشتر الأستعمارية الحديدية إلى زوجتي، والناس يعبرون ينظرون إلي وأنا أزداد شتما.. إلى أن مرت امرأة، وقفت وأدارت ظهرها لي، وأنا مستمر بالشتم..

فجأة، خطر لي أنها زوجتي؛ فتوقفت وتوجهت نحوها، أدارت وجهها وقالت لي بالعربية: أنت زوج صديقتي، ومشت.. تبعتها، وحاولت أن أوقفها إلى أن تدخّل شرطي.

فأخبرتني: ان لم تبتعد سأشكوك بالتحرش.

قال البروفسور: استسلمت للقدر، وخطر ببالي أن الهايد بارك، ابن عاهرة قد ورطني مع زوجتي، وأنه ليس مكانا للحرية، بل فخا" وقعت فيه شر وقعة.. ذهبت إلى حانة وشربت الخمر حتى سكرت.

عدت بعد منتصف الليل إلى البيت وكنت متأرجح الخطى، وتوقفت

أمام الباب مطولا وشعرت أنني أضعت المفتاح بحثت في كل جيوبي، فلم أجده.

وأعدت البحث إلى أن وجدته في يدي.. كنت على وشك أن أضحك.. عدت، نزلت إلى الشارع، وجدت باراً فاتحاًأبوابه، اشتريت قنينة خمر من النوع المسكر جدا، شربتها دفعة واحدة وشعرت أن معدتي تحترق، ولكنني في منتهى اليقظة، وكأن الخمر تحولت إلى ماء،

وقلت: يكفيني رائحة الخمر..

عدت إلى البيت.. فتحت الباب، ودخلت وأنرت الضوء، فوجدت زوجتي تجلس على الأريكة هناك، غاضبة متحفزة، وسألتني: لماذا تأخرت.

قلت لها: هههه هل قرع الجرس وبدأت الحصة؟

أمرته: قف جيدا، ولكنني تعمدت التطوح.

قالت: وسكران أيضا!

قال: فضحكت، متصنعا: ليش قالوا لك عني سكير؟

هذا مجرد نصف كأس مجاملة لرجل عجوز.

قالت له: هل كنت في الهايد بارك؟

obeikandi.com

قال البروفسور: بل في ملهى الهايد بارك، فهؤلاء الإنجليز أخوات عاهرة.

قالت له: إخرس، إنهم أفضل منك.

قال البروفسور بأنه إندفع نحوها وافتعل الغضب ملوحا بكفه تجاه وجهها، لم يكن يجرؤ؛ فسابقا رفع يده عشرات المرات، وتراجع في آخر اللحظات، بل سبق وأن صفعته هي.

لكنه وجد وجهها مغريا" جدا، فنزل بكل قوته على وجهها، حتى وقعت على الأرض وهجم عليها وأشبعها ضربا.. كانت في البداية تحاول ضربه، ولكنها أخيرا بدأت تتوسله، وهو يضرب تمتعا وليس ايذاءً.

رفع جسده عنها وقال لها: اذهبي، أريد فنجانا من القهوة بسرعة وإلا.

قالت له: أمرك.

تحركت نحو المطبخ، كان خائفا أن تحضر سكينا ولكنها عادت بفنجان من القهوة.

أمرها أن ترشف نصفه؛ خوفًا من أن تكون قد دست له منوما أوسُمًّا.

أشعل سيجاره، وهو ممنوع منذ سنين من التدخين في البيت وحتى

خارج البيت كانت تعنفه، يجب أن يعود بدون رائحته.

وأرادت أن تغادر، أمرها أن تستحم؛ لأنه يريدها الليلة، وإلا فأنه سيحضر عاهرة على سريرها أمام ناظرها.

نظرت.. رمقها نظرة تهديد.

وخرجت من الحمام باكية، وأمرها ان تلبس أجمل قميص نوم وتضع أجمل المساحيق..

شعر أنه يتحرر من بريطانيا وآثارها.

ذهب البروفسور مع زوجته إلى الفراش، وكانت قد مضت سنوات دون علاقة بينهما.

كانت باردة في البداية، ولاحقا تحولت إلى واجب اسبوعي ومن ثم شهري وبعد ذلك انتهت.

شعر بنشوة غريبة، قبلها بمنتهى الحب والرغبة وبقيا مستيقظين حتى الصباح.

شعر أنها كالقطة الجريحة؛ متوثبة تماما وأن موجة هدوئها واستسلامها انقضت.

صباح ذلك اليوم خرج إلى مكتب الطيران واشترى تذكرة باتجاه أمريكا.

obeikandi.com

الزاوية الصوفية .

قررت الفتاة الأرستقراطية الذهاب إلى الزاوية؛ لتتعرف على طريقة الصوفيين في ممارسة طقوسهم.. وضعت غطاء على رأسها، وكانت تتوقع أن يكونوا نسخة عن الخنفشاري، لكنها فوجئت أن الخنفشاري ليس متصوفا مثلهم، لم ينظر أي منهم في عينيها، ولم يتمعنوها؛ كانوا جد قديسين.

بدأت تطلق عليه الإسم الذي اختاره الكاتب" الخنفشاري" بلا تردد.. تذكرت كيف كان يذوب بين ذراعيها يقبلها ويضمها ويعانقها، ويقرأ عليها حقوقها في الغرام، وأنه جاهز لإنتهاك كل الأعراف بين يديها.

خرجت من الزاوية تشعر برهبة خاصة.. ينبعث من الشيخ نور ممزوج بدماثة ولطف ومحبة متسامية فوق البشرية:بعدًا وعمقًا.

وتساءلت: أين هو من النفس القلقة؟

أين هو من النفس المطمئنة، والنفس المرضية والنفس النقية؟

حفظت تلك العبارات من رجلها، ولكنها أدركت الآن أنها بحاجة لفهم الفواصل فيما بينها.

obeikandi.com

شعرت في ذلك الدرويش بالأبوة..أيقنت المكان الذي يستمد منه الخنفشاري طاقته الروحية، ويمزج كيمياءه الحيوية ويتخلص من بلادتها ومعادلاتها المعقدة، وتفاعلاتها التي تخلو من العواطف.

وسرعان ما يستيقظ منها ويشغل موسيقى هادئة وصاخبة، كلماته: ما بداخلنا هو عبارة عن نتاج تجاربنا، سواء الجميلة أو الحزينة تماما كأيامنا، له استخدامات متنوعة في التراث اللغوي والفكري والفلسفي والاجتماعي.

ما زالت دعوات الصوفيين الملأى بالحب والعطف تملأ اذنيها، تذكرت النظام القيمي لهم؛ نظاما ساميا وكأنهم يطلون على العالم من مكانتهم الخاصة العالية والمتواضعه جدا، شعرت بزهدهم وبساطتهم المتناهية، ابتساماتهم الرصينة.

وتذكرت ما حدثها الخنفشاري عن لعبة اثنين منهم مع الشيطان، حيث دخلا إلى بيت يدهنان جدرانه وهما يضحكان، وعندما سألهما لماذا تضحكان؟قال أحدهما: لقد بهدلنا الشيطان، وأتعبناه..

أتعرفين، إن الشيطان يحضر بسرعه عندما يَصفُر أحدهما.. يصفر صديقي الشيخ؛ فيأتي الشيطان مسرعا، وأنا أذكر الله فيهرب بسرعة، وهكذا نلعب به مطولا، وضحكا.

كانت تنظر إلى طهرهم وسجيتهم اللطيفة.

عرفت كيف يعاملهم الشيخ الكبير يطلقون عليه لقب "سيدي".. وجدت أن عالمهم الثقة والصدق والأمانة والمحبة.

كم تمنت أن تنكب على يديه لتقبلها وتتذوق لمسة الفراشة.

عندما يشعر"سيدي" أن أحد الدراويش بحاجة إلى المال يقدم له مبلغا كبيرا ولا يعده، ويطلب منه أن يذهب ويقيم مشروعا زراعيا او تجاريا او صناعيا. وبعد أشهر يسأله ماذا عمل، فيقول له أن المشروع ناجح وأن هناك فائض أرباح ويحضره للشيخ. وهنا؛ يقوم الشيخ باعطائه جزءًا من المال لا يعده بل يقدره، يساعده على عيش كريم، وإن فشل يعطيه مالا؛ ليجرب من جديد، أو يطلب من أحدهم مساعدته في اختيار عمل مجدٍ، والدرويش لا يعد من وراء الشيخ.. علاقة مبنية على الثقة والمحبة.

يجتمع المتصوفون مساء كل خميس ليلة الجمعة؛ يصلون ويتبتلون ويذكرون الله حتى الصبح.. يصلون الجمعة جماعة، ثم يتناولون طعامهم عند الشيخ.

وجد أن الغني يقتطع من ماله ويقدم للشيخ، والشيخ يعطي من المال للمحتاجين والفقراء.

لقد سحروها بمنظومتهم الصافية.

غادرت من هناك وهي مبهورة بهذا العالم، الذي لا طلاسم فيه ولا تعقيدات وزهد وتصوف وتسامي ومحبة.

فتذكرت استعانة جدتها بالشيخ الولي أحمد الرفاعي وهي تنادي: يا سيدي أحمد الرفاعي تقي من كل شيء فاعي. والمقصود أن من يستعين به تبتعد عنه الأفاعي والهوام، وكذلك: مَدَدْ يا رفاعي..مَدَدْ، وتذكرت ما قرأته عن ذلك الولي بأنه قد أسس الطريقة الرفاعية في التصوف، والتي تستند إلى فرسان في النهار رهبان في الليل.

قاتل المتصوفون إلى جانب صلاح الدين الايوبي.

عرفت ان الغرب قد تأثر بهؤلاء المتصوفين؛ فظهر فرسان الهيكل وفرسان المعبد في ايطاليا، الذين اعتمدوا نفس الإستراتيجية العسكرية وشنوا الحروب الصليبية على العرب.

وتذكرت ما قاله لها الخنفشاري، كيف أن التخلف يغزو عالمنا العربي، وتحول فرسان التصوف إلى دراويش، وفرسان الهيكل الإيطاليين إلى عقيدة عسكرية، وأننا ندفع بالشرق العربي نحو الخلف وليس نحو الأمام.

رغم ذلك أعجبت جدا بهؤلاء المتصوفين ولم تستطع أن ترى فيهم رموزا للحرب، بل عناوين محبة وتسامح.

لم يستطع الخنفشاري الا أن يحبهم رغم ارتكابه الذنوب؛ فإن الله غفور رحيم.

كانت قد سمعت رجل دين يهاجمهم، وعرفت لماذا لا يدافعون عن أنفسهم، لأنهم لا يكترثون. ويتمنون له بنيتهم الصافية الطريق القويم، غمرها الحب لهم.

obeikandl.com

صدمة الغرب والغربة.

عاد البروفسور ليحكي عن تلك الغربة ومرارتها التي تغص حلقه كلما تذكر أيام الضنك، واضاف: كانت تعنفه زوجته لذهابه إلى الهايد بارك، وكلما عاد من هناك يشرع يحكي لابنائه عن الحرية وعن الغرب وعن الاستعمار وآثاره المدمرة. يقابل ثورتها بمديح الحريات والإنتفاضات والثورات للشعوب.

وأصرت زوجته عليه أن يستكمل الدراسات العليا مثلها.. كان يتلكأ في دراسته وهي تسير بسرعة البرق فأنهت شهادة الدكتوراه. وعرف يوم تخرجها، انتظرته لكنه ضاع في الهايد بارك، كانت تنتظره كإحدى طقوسها.

عندما نزل في مطار نيويورك اتصل بابنائه، ليخبرهم أنه في امريكا، ومن المفاجأة وجد أن زوجته في نفس اليوم غادرت إلى الكويت حيث تحمل جنسيتها الثانية.

تجول حول الفندق الذي نزل فيه في نيويورك ضاحكا طوال الليل، هروب مزدوج منه ومن زوجته في نفس اللحظة، وتساءل: ماذا لو عرف أنها سترحل إلى الكويت. هل يبقى في لندن؛أم ماذا!

بعدما استقر ووجد عملا، التحق بالجامعة ليكمل الدكتوراه ، وأضحى مدرسا جامعيا.

كان حديثهم مع البروفسور متنوعا" ما بين السياسة والأدب والفلسفة والاقتصاد والتنمية والنساء والغرام والدين.. كثيرا ما تناولوا الأدب العالمي، والنظريات الفكرية، وانهيار الأيدلوجيات، وصعود الشعارات بدل النظريات، والإنهيار المدوي للفكر.

كان يمتدح الدفء في الوطن، ويصرح أنه يمثّل عودة التائه إلى ملاذه.. أتعبه الاغتراب والغربة، ولم يسكن قليلا من قلقه سوى بالعودة، شعرأنه لم يغادر الوطن سوى لحظات، ورغم قسوة الغربة ومرارتها التي ألهبته مطولا ورغم حياته المرفّهة، شعر أنه وحيد بلا دفء الشرق، وحيد كما احتلته أفكار سوداوية.

كان البروفسور عائدا في إحدى الأمسيات إلى البيت في امريكا، فوجد هناك رجال شرطة ودفاع مدني وإسعاف وسلالم وعربات ومعدات اقتحام مبنى.. نظر اليهم يقتحمون شقة في الطابق الذي يسكنه مقابل شقته وينزلون جثة.

اقترب ونظر إلى الشخص إنه جاره المحامي، كانت رائحته كريهة جدا إنه ميت منذ أيام.. مات محامٍ من جيله ولم يكتشفوا جثته إلا بعد أسبوع من أنتشار الرائحة، فذعر من ذلك؟

ماذا لو مات هو، فمن سيكتشف جثته.. لن يدفنه أحد! ومن سيشارك في دفنه؟

ستدفنه البلدية ويحسمون الكلفه من حسابه البنكي.

شعر بالغربة القاتله، ففكر بالعودة، تبين له أنه يمضي أكثر من أسبوع دون أن يسأل عنه احد، أو حتى يرن هاتفه. وجد أنه يعيش في عزلة ووحدة.

نزل يومها إلى الشارع، ومشى حائرا مذعورا من الموت وحيدا.. لأنه لو مات سيلاقي مصير جاره، لأنهم يقطنون منذ أربع سنوات في نفس البناية، التقيا عشرات المرات في المصعد، يكون البروفسور قادما وجاره مغادرا، أنهما متقاربان في السن، ولكن لم يسأل أحدهما الآخر يوما ما عن اسمه، بل كان يعرف اسمه من اليافطة على بوابة شقته، وإنه محامٍ.

بقي يدور في الشارع إلى أن تعبت قدماه، فكر في العودة إلى الشقة، خاف من الوحدة، اتصل بصديقته ليمضي الليل عندها، اعتذرت له.

اتصل بكل معارفه فكانوا مشغولين، كما قالوا.. ذهب إلى إحدى المقاهي، وتنقل من مكان إلى آخر حتى طلع الصباح.

هاتف ادارة الجامعة وطلب اجازة لمدة يوم، وأخبرهم أنه قد يمددها، لكنه أخبر الموظفة بأنه اذا لم يتصل فعليها أن تطمئن عليه، وحدثها عن

جاره وأخبرها أنه خائف أن يموت دون أن يشعر به أحد، إنه يريد أن يدفن بلا رائحة.

عاد إلى البيت منهكا.. لم يستطع النوم، راجع السنوات الأربع، وكيف تحول إلى ماكينة؛ أي آلة مبرمجة، ساعة الإستيقاظ وموعد النوم وموعد المحاضرة، وتساءل ماذا انجز؟ وماذا حقق المال، هروب من الانتفاضة إلى بريطانيا وهروب من بريطانيا إلى أمريكا، ألا يستحق أن يحلم بالعودة إلى الوطن!

قال البروفسور: تبا للمال، سحقا لهذه الدوامة، أدرك أنه استيقظ مرة واحدة.حتى النساء لم يفكر بالزواج وبأسرة، فقط علاقة مع مكسيكية مهاجرة غير شرعية للتفريغ؛ بلا محبة، كنوع من التعود على كسر الرغبة.

شعر أن الموت يسكن البناية، فقد يدخل شقته في أية لحظة، بعد نومه قليلا استحم وخرج إلى الشارع، رأى أناسا ذوي ملامح شرق أوسطية كما يسمونهم هناك، توقع ان يكونوا عربا.. اقترب من أحدهم، كم شعر أنه بحاجة إلى لغته العربية، ورد عليه السلام باللغة العربية.. تفاجأ أنه يجيبه بالإسبانية، عرف أنه قد يكون من أمريكا الجنوبية أو الوسطى أو اسبانيا، كرر المحاولة ولم ينجح.

قال له الكاتب: لقد ذكرتني بصديق لي ذهب ليدرس في إسبانيا، رافقه أبوه إلى هناك، وبعد أن تركه صار يذهب إلى معهد اللغات ويعود إلى الشقة.

وبعد مضي عدة أشهر اكتشف في الجامعة وهو يقرأ اسماء عربية حتى أن بعضهم من بلده تبعا لأسماء العائلات، فقرر أن يتعرف بهم، سأل زملاءه من الطلبة الأجانب من مختلف الجنسيات، ولا أحد عربي بينهم، لم يسعفه أحد، وكثيرا ما اعتقد أن هذا عربي من وطنه، وأخيرا فكّر أن يقف على بوابة الجامعه وبدأ يشتم كل الداخلين والخارجين، ....أمك و.....أختك. يهز البعض رأسه وآخر يعتذر وآخر يستفهم، وهو يكمل ولا يعير أنتباها، إلى ان وقف شخص اشقر يبدو أوروبيا وقال له: لا والله.. أختك أنت، فتشاجر معه، ثم احتضنه وقال:أخيرا، والفرحة تغمره.

وعبر صديقي عن أسفه، قائلا: لم أجد طريقة غير هذه لأعرف أي عربي أو فلسطيني، ذهبا إلى الساحة وعرفه بفلسطينيين وعرب، وجد أنهم يسكنون في نفس البناية ولكن من مدخل آخر.

ضحك البروفسور: هههههههه، وقال: لو أن لي هذه الخبرة لشتمت نصف أمهاتم وأخواتهم.

أضاف: أنا المغترب العائد: قررتُ أن أعود إلى الوطن، فكرت في زيارة خاطفة أستطلع الأوضاع وهل تغّير الناس أم لا!

حزم حقيبة صغيرة واشترى بعض الهدايا على عجل.

تراجع عن إكمال هداياه، وقرّر أن يقدم بدل ذلك نقودا عندما عرف أن

حجم الهدايا سيكون كبيرا ويحتاج إلى أكثر من حقيبة.

اتصل هاتفيا؛ وأخبر إخوته أنه قادم في مؤتمر علمي إلى بلد مجاور، وإنه ربما يتمكن من زيارتهم وألح أخوه عليه بضرورة أن يزورهم، فأخبرهم أنه لم يتجهز ولم يحضر هدايا لأخواته وإخوته وأبنائهم وهو محرج.

إلا أن أخاه طمأنه أنهم يريدون رؤيته فقط.

obeikandl.com

نبيل والقفز عن البرج.

دخل الرجل إلى خلوتهم، قائلا: أنا نبيل، وسلم على البروفسور، وضحكا..نظر الكاتب إليه متمعنا تماما.

في ذلك اللقاء الذي جمعهم مع نبيل، كانت جذوة الانتظار تربط ثلاثتهم بحلقات متتالية.

قال نبيل: عندما دخل جامعة بيت لحم، كان مشدوها بما يرى، أَلِف ناديا لطفي، وغيرها من الممثلات اللواتي حلم أن يرى واحدة منهن أمامه، لقد صدم ولا يعرف ماذا يفعل، سال ابن القرية المجاورة: ما هذا؟

هل أجلس بجانب واحدة منهن! وكيف لي أن أفهم شيئا من أي محاضرة ما دامت أنفاسهن تخر في عظامي، هل ينجح الطلاب؟ أنظر إنهن يرتدين الثياب القصيرة، يا الله.. أخاف أن أصعق!أنا ما الذي جاء بي إلى هنا.

قال، مرتبكا: اسمع يا بلدياتي، ساعدني غدا أن أعود إلى البيت، وانخرط في البكاء.. تراءت له نساء قريته المتلفعات بالثياب لا تظهر سوى رؤوسهن، لم يشاهدهن إلا في الأعراس يتزين بالأثواب المطرزة،

ولكن لا أيدي ولا أرجل ظاهرة، أما هنا فاللحم الأبيض البض يملأ المكان. أصبح يهذي من هذا.

ضحك ابن القرية المجاورة وأخبره: ستعتاد على ذلك.

ضحك الكاتب مطولا، وقال: لقد دخلنا الحرم الجامعي والطلبة يتجمعون في الحرم الجامعي وعيونهم شاخصة إلى السماء، قال ولقد سألت أكثر من واحد لم يجيبوا.

فأشار أحدهم إلى أعلى، إلى برج الجامعة.

نظرت وجدت شخصاً يقف هناك على قمة البرج الخارجي، يمسك بمانع الصواعق.

وسألت: من هذا؟

قال: نبيل؛ إنه يهدد بالأنتحار.

قلت: لماذا؟

قالو: إن حبيبته تخلت عنه. فعرفت أنها وفاء.

اقتربت من أسفل البرج وناديت عليه، وكانوا يحاولون إقناعه بالنزول.

قلت، بصوت جهوري وعالٍ: قد جئت من المستشفى، هناك وفاء

obeikandl.com

مغمى عليها. لأنها سمعت أنك مت.

وأكمل: هي أرادت أن تختبرك فقط، إنها تحبك وتموت فيك.

نظر نبيل إلى الأسفل، وقال: أنت كاذب.

قلت: إذن ارمِ نفسك، خليها تموت عليك حزنا.

طلب منهم أن يحضروها ليسمع منها.

قالوا له: هي في الإنعاش كادت تموت (لما شافتك متشعبط البرج).

(أنت لازم تنزل وتروح عليها).

كان معه صديقه اليساري الذي كان بالقرب منه يسمع الحوار، فقال: نعم يا نبيل أنا وإياه كنا في المستشفى ووفاء هناك.

وبدأ يستحلفهم بالله وهم يقسمون..أراد النزول وانزلقت قدمه. وخاف وأصيب بالذعر وتسلق اثنان من حراس الجامعة، ومعهما حبل بطريقة ما ربطاه بالحبل ومن ثم نجحا في إنزاله عن البرج.

ولكنه كان مصابًا بنزيف في الركبة بسبب إنزلاقة عند محاولة النزول.. سأل عن وفاء، فدخلت فجأة من خارج الجامعة، ولم تكن تعلم عن محاولة أنتحار نبيل.

obeikandl.com

وعندما عَرَفت، صرخت: لقد فضحني هذا الكلب.

توسل إليها أصدقاؤه، فذهبت إليه وقالت، أمام كل الطلبة: أنا لا احبك.. أنا مخطوبة.. انصرف.

أنهار نبيل، وقال مهددا: والله لأنتحر عن جد، لقد كذبتم علي موجها حديثه للكاتب ولليساري.

قالا له: إنها لا تستحق أن تنتحر من أجلها يا تيس. إنسَ.

صرخ قائلا: لا أستطيع.

قالا: وكرامتك!

حاول الصعود إلى البرج، لكن الحراس أغلقوا بوابات البرج وبوابات أسطح البنايات، وقاموا بتدابير تمنع مستقبلا صعود أي شخص إلى تلك الأماكن العالية.

ضحك الكاتب، وقال: أتعلم يا صديقي إن نبيل كان قد شرب سبيرتو وسكر تماما.

اعتكف أياما قليلة في البيت، ثم عاد إلى الجامعة.

الأزمنة والحدث العظيم.

ها هو الخنفشاري يعترف لأبي خديجة، أن عشر سنوات من الغربة زادته قلقا.

قال الخنفشاري: لقد رميت شهاداتي المتفوقة بالكيمياء، ولم أستطع أن أعود فلاحا إلى أرض أبي.. سافرت إلى الأردن، عبرت الجسر غير ملتفت ورائي.

تركت فتاتي، أو تخليت عنها، أو حمّلتها تفسير الماضي.

اعتقدت أنني أرمي قلقي وعواطفي المجنونة وشهاداتي الجامعية في نهر الأردن المالح، أو أحيلها إلى المغطس على حافة النهر لأغتسل منها؛ كما اغتسل السيد المسيح.

تساءلت: ما هذا؟ هروب؟

قلت: ها أنا أرمي شهاداتي ولي مثال البروفسور حنا ميخائيل المحاضر في هارفارد ، قدم إلى الثورة في لبنان، تحت قيادة ثائر محدود التعليم، بسبب وعيه الطاغي بالتضحيه.

وها أنا أرمي خلفي ما عملت من اجله، هل أضحي من أجل طبقة

obeikandl.com

الأثرياء ليزداودوا غنى ويرفضوني.

أردت التخلص من صفاتي .

أريد الانتظام في نفسي من جديد . هل أستطيع؟

مرت عشر سنوات علي وأنا منزو في مخبز قديم، أتنفس رائحة الحطب المحروق، وهي لم تغادر عيني؛ كنت أراها في كل رغيف.

لا أعرف عن ماذا أبحث؟ عن البدايات؟

عن النجاح.. ماذا لو اكتشفت انني مخطىء منذ البداية؟!

أخبرني يا أبا خديجة: لو قررت العودة هل ستستقبلني؟ هل تهشمت صورتي لديها؟

أخبرها يا صديقي أنني أفكر بالعودة.

أقنع الكاتب نفسه أنه أصبح يبحث عن شيء ما لم يعرفه بعدما أثارته أحلام الفتاة الغامرة، قد يكون أسطورته الذاتية بعدما أرّقه رجل الجليد بنظريته، ولكنني عبثا حاول سرعة الاكتشاف وسرعة اليقين والوعي لذاته، قرر أن يستعين بإمكانية اكتشاف الآخرين. وحتى هذا الحدث العظيم، كما أسماه، قد يكون دخل ثنايا الأنا، ووجد أنَّ معياره القيمي الذي أنهمك فيه، كما يقول جريفز، على لسان دون باك، أو كما "نظرية

كل الأشياء"، ليجد اجاباته، اكتشف مؤشرات تحتاج إلى اختبار عميق وبحث وتمهل، كان متعجلا للاكتشاف.

ألا تحاولين أنت معرفة حالك.

هزت رأسها فقط، زادته غموضا.

ارتشفا قهوتهما وهما يتبادلان احاديث عادية، شعر أنها تجامله فقط كي لا يكون لقاؤهما بارداً،

نظر إلى عاشقين هناك يتهامسان ونظراتهما الهائمة في بعضهما.

قال لها: وددت لو أننا كنا مثل هؤلاء، فنظرت إلى ناحيتهما وضحكت، ولم تعلق.

أنتبه إلى البروفسور وهو يحدثه عن عودته إلى الوطن حيث توجهت الطائرة من نيويورك إلى مطار هيثرو في لندن، وكم راوده شعور الانقباض في لندن التي يكرهها، لم يرتح سوى عندما أقلعت الطائرة من مطار هيثرو إلى عمان في الأردن، بعدما قدم إجازة عاجلة، وفورا إلى جسر نهر الاردن ليعبر عائدا، رغم إجراءات الاحتلال المطولة واستجوابه مطولا: ماذا تعمل وأين وكيف وعلاقاتك وأنشطتك... إلى آخره، من هذا المانشيت الطويل الممل والقاسي.

استمر حتى ساعات المساء وكان متعبا جدا لحظة سمحوا له بإكمال

الطريق، وغمره الفرح.

وصل مساء ذلك اليوم بعد غياب خمسة عشر عاما، وجد أن بلدته رائعة كما هي، وكما تركها؛ لم تتغير كما في ذهنه، أرشد سائق التاكسي إلى البيت وحتى أن هناك حجارة كبيرة بقيت على حالها أمام البيت، رغم غياب كل هذه السنين.

ما أن أطل من السيارة حتى تجمّع أمام البيت عدد هائل من الأشخاص والزغاريد تملأ المكان ترحيبا به، اجتمع حوله شباب يسلمون ويقبلونه، وفتيات وأولاد وهو يسلم ويعرف أنهم أبناء إخوته وأخواته وأقاربه وجيرانه، غمرته الفرحة تماما.

وكان أخوه وأخته يقومان بتعريفه على الناس القادمين للتسليم عليه.. أنتشى تماما، شعر بالحياة من جديد ودبّت فيه الدماء.. كان يشعر أنه ولد من جديد، كانوا يحكون له وهو يحب أن يسمع التفاصيل أكثر وأكثر، وهم يكثرون السؤال في تفاصيل زوجته وهو يقتضب.

جاء جار له، مدرس جامعي وأخبره أن يقدم لجامعة القدس وهم بحاجة إلى تخصصه وكذلك الجامعات الأخرى، شعر بروعة الفكرة، حتى بدأ يتخيلها تماما، وتحمس للذهاب معه إلى الجامعة لتقديم أوراقه للعمل.

تفتّحت الآفاق والترحاب الجميل والنوم الهادئ والولائم والدعوات،

كان قد أدخل يده في جيبه، وبدأ يوزع مالا على أقاربه بدل هدايا والكل مسرور منه على كرمه، وهو مخمور بالفرحة ومتخلصٌ من الوحدة.

شقيقاته جئن في الصباح الباكر يمشين على رؤوس أصابعهن كي لا يفيق من نومه.

يحف الكل ويزف ليل نهار وأنتهى الأسبوع وجدد إجازته، وانقضى أسبوع آخر وهو مسرور يكتشف الحياة من جديد.

كان البروفسور حزينا لإنتهاء إجازته وعودته إلى أمريكا، قرّر أن ينهي ارتباطاته ومن ثم يعود إلى الوطن نهائيا.

كان يتصل كل ليلة بإخوته وأبنائهم وأخواته، اكتشف أنه عم وخال عزيز على كثير منهم، تدفّق حبهم في قلبه، قضى ساعات طويلة في مجالسهم.

عاد نهائيا من أمريكا محملا بالبضائع والهدايا إلى كل أفراد العائلة والأصدقاء القدامى وكان يتصل ليتأكد كي لا ينسى أحدا، ورتّب كل أموره وكذلك سر كثيرا عندما عرف بقبول طلبه للعمل محاضرا في جامعة الخليل.

بدأت حياته الهادئة؛ المليئة بالطمأنينة تحيط به من كل جانب، ولا يستطيع أن يملك من وقته إلا القليل للأبحاث والتحضير والتصليح،

أما بقية وقته فهو للجلوس معهم والسمر والحديث واللعب.

في طريق ذهابه إلى الخليل وصل إلى حاجز عسكري احتلالي يسمى الكونتينر.. حاول التقدم، فنهره الجندي بالبندقية؛ تراجع إلى الخلف هو وإبن اخته.. بعد انتظار طويل سُمح للمشاة بالعبور بعد التفتيش والتدقيق بالهويات.. رأى كيف يطلب من الشباب الكشف عن بطونهم وصدورهم، وخلع الأحذية والالتفاف حول أنفسهم والتفتيش الجسدي المهين، إلا أنه الوحيد الذي لم يشعر سوى بالفرح؛ إنه مع شعبه الآن..

هرب من الانتفاضة الأولى؛ انتفاضة الحجر، وأما اليوم فخطر الحواجز والموت والاغتيالات والطائرات الزنانة في كل ركن.. وفي عبوره إلى بيت لحم شاهد الطائرة الزنانة بدون طيار طائرة مطاردة وتجسس، لم يكن هناك أي حاجز طيار على طريق بيت ساحور، والمرورأقل سوءا.

وصل بيت لحم وسار حتى اعترضه حاجز النشاش، جنوب غرب المدينة إلى الشارع الالتفافي المؤدي إلى الخليل.. ركبوا الحافلة التي توقفت عند حاجز مستوطنة عصيون، نزلوا من الحافلة وتعرضوا لمسلسل التفتيش المهين نفسه.

واصلوا السير إلى حلحول واعترضهم حاجز تفتيش آخر، عبروا منه إلى بلدة حلحول، ومن ثم ركبوا حافلة إلى الخليل واعترضهم حاجز رأس الجورة؛ فأنزلوا من السيارة وتم تفتيشهم.

صعدوا تله ترابية نحو مدينة الخليل، وركبوا سيارة إلى جامعة الخليل .

كان فرحا جدا وهو يملأ الاستمارة، رغم ما واجهه في يومه.

أبلغوه بمقابلة مع لجنة التوظيف وتم قبول طلبه فورا، وأخبروه أن يبحث عن سكن في المدينة لصعوبة التنقل، ولكنه أصرّ على التنقل عبر الحواجز متمتعا بتعرضه للتنكيل ومواجهة الخطر، الذي هرب من أقل منه بكثير منذ خمسة عشر عاما.

بدأ العمل، فتعرف على المدرسين تماما، عاد إلى الوطن يبحث عن الإستقرار ولكن جدار الفصل العنصري فصل الفندق الذي صرف معظم مدخراته على ترميمه، وأصبح في الجانب الآخر من جدار الفصل العنصري الذي تعمل سلطات الاحتلال ليل نهار لبنائه واستكماله.. إنه الاحتلال ينغّص عليه حياته، وجد إنه أمام قضيته قضية عادلة، قرّر أن يقاوم الجدار، انطلق مشاركا في المسيرات المناهضة.

تعرّف على أجانب قادمين من كل أنحاء العالم متضامنين دروع بشرية سحرته إنسانيتهم الطاغية..

تشاجر مع الكاتب عندما وصف الشعب بالتخلف.

قال البروفسور: إسمع أنا عشت الفردية المطلقة في الغرب لا شيء يوازي العائلة.

اتفقا أن ايجابيات العائلة والعشيرة الدفء والتضامن و..

ولكن الكاتب أصر على سلبياتها وسلوك القطيع.

اقتنع البروفسور بنمط هذه الحياة الرائعة.

obeikandl.com

أي ذنب في داخلي يكبر.

قال البروفسور: أو تعلم أن الخنفشاري هذا رجل قد احتلني حد الجنون لا يفارق مخيلتي..أتعلم أي ذنب في داخلي يكبر؟ لقد هربت من أنتفاضة الحجر، يومها كان يسكنني الرعب ولم أصحُ مع الشعب الذي خرج عن بكرة أبيه إلى الشارع؛ هاتفا ليسقط الاحتلال، كان الناس مسكونين بالذعر وفجأة وجدتهم في الشارع، قالت لي زوجتي لنهرب بسرعه، أنظر ماذا يحصل مظاهرات عارمة الناس يصيبهم الجنون، إغلاق وحظر تجول.

قفز الشباب ليسيطروا على الشارع، واستقال رجال الشرطة وأنتظمت الحياة ضمن البيانات وأصبحت الاعلام الفلسطينية تملأ الشوارع وبيانات القيادة الوطنية الموحدة ومسلسل الاعتقالات يصيب بلا هوادة السياسيين وطلبة الجامعات والنقابيين.

وتشكلت اللجان الشعبية ولجان الحراسة ومقاطعة منتوجات الاحتلال ، كان تسارع الأحداث يصيب زوجتي بالجنون، حزمت الحقائب وقالت إلى لندن كي لا يضيّع ابناؤنا دراستهم او يقتلون في المظاهرات.

في ذلك اليوم اطلقت قوات الاحتلال قنابل الغاز على المدرسة التي

يدرس فيها ابني البكر، وعندما علمت زوجتي جن جنونها والطرق مغلقة بالإطارات المشتعلة والمواجهات بالحجارة من قبل المنتفضين، كانت تصرخ: لا نستطيع الوصول إلى المستشفى، وأخيرا وصلنا إلى هناك.

كان ابني مغمى عليه من الغاز المسيل للدموع وعالجوه.

في صباح اليوم التالي حزمت زوجتي الحقائب وغادرنا إلى جسر الأردن وصولا إلى عمان، ومن ثم سافرنا إلى لندن.. كنت مسلوب الإرادة ومشيت معها، بلا تردد، وصلنا لندن.

أتعلم أن الخنفشاري خاض الانتفاضة والاعتقال، وعندما اقترب حصاد ما غادر.

كان من الممكن له أن يتربع على عرش وظيفة كبرى؛ لأنه من صناع الثورة والانتفاضة!

قال البروفسور: هرب في وقت يختلف عني، أنا هربت جبنا، أما هو غادر بعدما حصدت الانتفاضة اتفاق مصالحة، وها هي تنهار بعد سبع سنوات.

ها أنا اعود في الطوفان، أنتفاضة الأقصى وحصار المدن والانتحاريين والمواجهات المسلحة والرصاص ليل نهار يلعلع والطائرة الزنانة تملأ

الأجواء رعبا تنذر باغتيال، وكم عبرت الحواجز الترابية بين بلدتي قرب القدس إلى بيت لحم وإلى الخليل.

لا تحتمل سوى نصف ساعة بالسيارة، ولكنني أمضي أربع ساعات في عبور الحواجز والتفتيش والتنكيل، وأوامر جنود الاحتلال "ارفع عن بطنك.. استدر..افتح الشنطة على الأرض..ارفع كل كتاب".

اليوم عدت وأنا مرتاح جدا؛ لست جبانا ولا هاربا.

كنت جباناً حين هربت من الانتفاضة الاولى، وفي أمريكا أتابع الأخبار ليل نهار، على التلفاز والراديو وبالهاتف، أعرف من اعتقل من أبناء اخوتي وأخواتي، ومن أصيب ومن جرح ومن استشهد.

اليوم أنا محاط بالشهداء والمعتقلين والمصابين.

أذهب لأدرّس في جامعة الخليل، فأعبر من مدينة بيت لحم، وأواجه أربع حواجز احتلالية ثابتة واحيانا تصل إلى عشرة حواجز.

الحياة ممتعة، يوجد هدف، ماذا لو قتلت الآن، مات المحامي الامريكي أمام بيتي دون علم أحد، أما أنا فسيشهد الرصاص علني لن أنتفخ وتفوح رائحتي.

بل أنا مشارك دائم في زيارة المستشفى.

أضاف البروفسور: يحتفل صديق لي بالإنتقام من الاحتلال. بعد كل عملية تفجيرية، يفتح أفخر قنينة ويسكي، يقول لي شرب نخب الاحتلال المذعور.

مع أنني أخالفه الرأي هذا الاحتلال الدموي أفقدنا عقولنا، أنا الوحيد الهارب إليكم من راحة البال.

أنا عدت من خوفي وجبني الأول.

اسمع، أنا أعلن أن الخنفشاري المقاوم أستاذي ولغتي.

إني أتبرأ من جبني الأرستقراطي. أنا منك ومن شعبي لا هروب.

كان البروفسور العائد من أمريكا يرتجف ويضحك.

وسأل الكاتب فجأة: ما رأيك؟

قال الكاتب: أنت وجبل الجليد والفتاة الغامرة، لعنة أصابتني، ألا يكفيني الخنفشاري ونبيل والفتاة الأرستقراطية وأبو خديجة! والآن أنت! صاح، مقهقها: ويحك.

قال البروفسور: بل إنني معجب بالخنفشاري جدا لقد اتصل بي صديق أكاديمي عائد من الخارج ليعمل في السلطة، أرى فيه صفات بعض الخنفشاري بل هو أقل او أكثر خنفشارية لا أعلم، سأعرفك عليه، لا يشبهه ولكنه مختلف.

obeikandl.com

قال البروفسور: هذا هو الرجل نصف الخنفشاري.

كم كان في قلب أحاديثهم الدكتور المتشرد حسبما أطلق عليه الكاتب، وهو شخص مميز أستاذ جامعي، عاد من سويسرا إلى الوطن يحمل أحلاما بالنجاح، لكنه تلوى جوعا ولم يستطع حتى التسول، وجد نفسه غريبا حتى بين اخوانه، لقد دفعته الظروف في مهب العواصف البشرية، حيث يفقد الإنسان الوسيلة، لقد عاش في الغرب، واعتقد أن بلاده ووطنه كل شيء فيه سلس وبسيط، رجع مع العائدين يحمل في جعبته الأحلام الكثيرة ولكنها صدمته وأدمته ووضعته في خانة لا يرقى أسوأ كوابيسه إليها.

لقد جال وصال وكان سفير جامعة الدول العربية في جنيف، تزوج امرأة سويسرية وأنجب منها ولداً وبنتاً، سمّى البنت ناديا والولد سامي، طلقها وتزوج أخرى وأنجب منها رامي.. انفصلا بمنتهى الهدوء، له صديقة تدعى سوزان، عمل في مؤسسة إقتصادية، قتلته الشفافية لم يستطيع التعايش مع الفساد، راودته الخمرة واسوأ عاداته القديمة القمار، وأصبح يشرب حتى الثمالة، وغادر المؤسسة إلى عملية قلب مفتوح.

عاد إلى الوطن وفقد عمله وتشرّد بحثا عن المال، حملته الأيام إلى مدينة الكاتب، كان يبحث عن عمل، رجل دخل مكتبه لا يعرف أن

obeikandi.com

القدر ساقه إلي جليس أسقاه الشاي، بدأ حديثه إنه رجل موسوعي، بحر متحرك من العلم والمعرفة، يأسر سامعيه، يجيد اللغة الانجليزية والفرنسية والألمانية إضافة إلى اللغة العربية، مطلع واسع المعرفة والعلم.

وعند الانصراف طلب منه مائة دينار أعطاه عشرين، وبعد يومين عاد اقترض من أحد العاملين مع الكاتب، عندما عاد المرة التالية، سأله الكاتب: ما مشكلتك؟ شكا سوء الحال، وإنه بلا عمل ولا يعرف ماذا يفعل!

طلب الكاتب المساعدة من الأصدقاء الذين وجدوا له عملا في جامعة الخليل، وهناك تعرف على البروفسور العائد من أمريكا، كلاهما له تجربة خاصة وأصبحا صديقين مشتركين للكاتب.

قال الكاتب: إننا مدينون لهذا الرجل بأنه غير مسار حياتنا، لكن ما كان ينقصه إدارة أحواله، كان الطلاب يجتمعون حوله، يحن عليهم ويعاملهم كأبناءه، وكثيرا ما يهاتف ابناءه في سويسرا، أهله في القدس أهملوه خوفا على الميراث.

وما كاد يشبع حتى دهمته سكتة قلبية؛ مات فجأة دون سابق إنذار، حزنّا مطولا واتصلنا بأقربائه، لكي يدفنوه تجاهلوا وتباطأوا في القدوم، وأخيرا أخذوا جثمانه إلى القدس؛ فدفن حيث أحب.

آخر يوم له ضحك مطولا، وأكل وشبع وكان منتعشا يرشف الحياة بتألقها الأخاذ.

كانت الدموع تنهمر من عيون البروفسور وهو يقصّ حكاية المقدسي، وانتقل إلى الحديث عن زوجته.

سمع بعض الإشاعات من أقاربه أنها ستعود من الكويت لتلتحق بزوجها.

أضحى منزعجا وقلقا جدا، بعد استراحة أكثر من عشر سنوات، وتساءل: هل تتنازل عن جنسيتها الثانية؟

من الممكن أن تصبح محاضرة في إحدى جامعات الوطن.

حاول تهدئة مشاعره بأسئلة: لقد هربت بنا من أنتفاضة الحجر فكيف هذه الحرب المعلنة على المدنيين من جيش الاحتلال، هل تحتمل هذه الأوضاع؟

شعرت أخته الكبيرة بقلقه.

تجرأت، قائلة: تزوج امرأة أخرى، فثار ابن عمها أخو زوجته، لكن الفكرة راقته تماما.

انتقم من أصحاب الشهادات على طريقته .

كانت أحلام البروفسور الأرستقراطي الرث" في امرأة تختلف عن زوجته الرابضة في الكويت، رغم إنه متمسك بالشهادات.

بعد بحث مضنٍ عن امرأة متعلمة، التقى فتاة نابلسية وهي إحدى طالباته في الدراسات العليا، أعجبته تماما، وهي تتقرّب منه تزلفا، من أجل تحصيل علامات مميزة، كان قد تعلق بها تماما وهي امرأة قوية الشكيمة وسليطة اللسان وبيضاء إلى حد الحليب، وضاحكة وشخصيتها قوية جدًا، وعيونها سوداء ونظرتها ثاقبة وقوية وحادة، ولكنها مسترجلة وطبعها اللؤم والغرور الانثوي.

وفي إحدى محاضراته وقفت تعطي عرضا وهي تلبس سروالا ضيقا، ويظهر جسدها من جهة السرة وهي ترفع يدها مشيرة نحو السبورة، وكان قد بدأ ينفعل تماما معها سحرته المرأة البضة، فتح الشبابيك في عز البرد، اشتكى طلابه من البرد، وحرارة أنوثتها كانت تلفحه ويحمر وجهه ووجنتاه.

ماطلت وتهربت من عرضه للزواج بها.. انتظر ولم تعطه ردّا ولكنه تغيب عن الأنظار مدة حتى اتصل بالكاتب وأخبره أنه تزوج فجأة من إمرأة ريفية بسيطة ومستوى تعليمها المرحلة الإعدادية ولم تتعد الصف

obeikandl.com

التاسع.. انتقم من أصحاب الشهادات على طريقته.. ذهب مع صديق له إلى تلك القرية واستقبلهم الناس هناك بمنتهى الترحاب، تحدثوا عن الزواج وقال لهم إنه يريد أن يتزوج، ويبحث عن عروس لها مواصفات المرأة الشرقية المطيعة، على نمط شرق آسيا..أخذوه إلى بيت جيرأنهم وجاءت فتاة لم تبلغ العشرين، قدمت له القهوة خجلة تماما، وسألوه ما رأيك بهذه، قال: اسالوا الفتاة أتوافق علي.

وافقت؛ بهرها أنه أستاذ جامعي، لم تنظر إلى فارق العمر..أعجبها عباراته"إن العمر هو مجرد رقم لا طائل منه، وان الأرقام تتكسر كما أعواد القصب"، اما العمر فهو النضوج، وهي فتاة بالغة عاقلة، وتزوج خلال أيام.

جاء بها إلى بيته، حتى ينهي بيت الأحلام، إنه يملك بيتا من الطراز القديم يسمى" العقاد"؛ سميك الجدران وله أقواس وسقفه قوسي ويمتاز بأنه بارد صيفا دافئ شتاء، ولكنه من غرفتين واسعتين مساحة الغرفة الواحدة خمسين مترا مربعا، قام بإضافة غرفة من الأمام بمساحة الغرفتين سقفها قرميداًأحمر، ومن الخلف مطبخاً حديثاً، وممر جانبي يربط الغرف، أضحى نصف البيت ذا طراز عربي قديم، وفيه غرفة نوم وغرفة جلوس لزوجته وجهاز تلفزيون لها تتابع مسلسلاتها العربية والأجنبية، واقتطع في النصف الآخر ذي الطراز الاوروبي غرفة القرميد مكتبا له وايضا مكتبتة تتسع لمصادرة الانجليزية وكتبه، وتلفزيونا خاصا به مفتوح على شبكة سي أن أن الأمريكية.

قال الكاتب: زرته، فانفجرت من الضحك وهو يريني بيته، سألني ماذا بك؟

قلت له: إنك بطل رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب الصالح السوداني،

قال البروفسور: عن ماذا تبحث يا صديقي المتفلسف؟؟

أي مثقف تتحدث عنه!!

ما مدى تأثير العلم عليه؟ أهو فقط بروتوكول وديكور لا يستخدم في الحياة؟

محور دائم للنقاش..

أهي عقدة المثقف العربي المهاجر إلى الغرب يعيش شخصية مزدوجة، يبني بيتا فيه الطراز العربي ويضع الطراز الأوروبي، يتزوج امرأة بسيطة لأنه يبحث عن فروض الطاعة، ويتشدق بالحريات والديمقراطية، لا يستطيع التخلص من شخصية سي السيد التي وصفها بدقة نجيب محفوظ.

برر مطولا للكاتب أنه ليس كذلك، كان الموضوع الدائم لدى زيارات الكاتب الدائمة له .

قال: إنني عكس الخنفشاري أنا من عائلة أرستقراطية تماماً، ولكنني أصبحت من أتباع الخنفشاري.

حيث قلبت المعادلة وأردت فتاة ريفية متواضعة،

كسرت القوالب كسرت طقوس الأرستقراط،

ما رأيك في صديقك الأرستقراطي فيما فعل؟

قال الكاتب: سأصحبك إلى أبي خديجة إنه أحد مريدي الخنفشاري، يعتبره معلمه الأول.

obeikandl.com

ليلة السفر إلى دبي

قرر السفر إلى دبي من أجل دعم مشروع إسكان يتعرّض للهدم من الاحتلال؛ بدعوى أن جزءًا من الأرض المقام عليها المبنى هي منطقة "ج"، وكان الاحتلال قد قسم البلاد إلى ألف وباء وجيم، أو حسب الحروف الانجليزية إيه وبي وسي.

يسمح البناء في ألف"ا" وباء"ب"، أماجيم "ج " فممنوع إلا من خلال الحكم العسكري وإدارة الاحتلال.

كان يحدوه الأمل أن يأتي بالدعم من الإمارات العربية المتحدة، وكان عام 2003 هو عام الإجتياح والحواجز والمصاعب، ولكي تكون على جسر الأردن صباح 2003-10-9 يعني أن تبدأ الرحلة قبل يوم، علما ان المسافة ما بين الجسر ومدينته لا تتجاوز 30 كيلومترا وتحتاج إلى نصف ساعة بالمواصلات، ولكن الاحتلال قطع الأوصال ووضع عشرات الحواجز، وعليه إجتيازها كي يصل إلى الجسر في صبيحة اليوم التالي..

حمل حقائب شبه فارغة، كي لا يتعرض إلى التفتيش القاسي وعبر أول حاجز من بيت ساحور، بعد التوقف لمدة تزيد عن الساعتين، ومن ثم عبر إلى واد النار وتوقّف قرابة الأربع ساعات أمام حاجز

obeikandl.com

طيار ومتحرك، ومن ثم وصل إلى حاجز الكونتينر؛ وهو من أصعب الحواجز العسكرية.. ومكث حتى الثامنة مساء وتعرّض للطرد والتهديد عشرات المرات ولم يستطيع العبور. إلى أن تمكن، مع آخرين، من خداع جنود الحاجز بعد الثامنة وسمحوا لهم بالعبور إلى أبو ديس، ومن هناك ركبوا سيارة إلى أريحا، فتجاوزوا الحاجز الأول ووصلوا إلى حاجز مستوطنة الخان الأحمر الذي منعهم بشدة وهددهم بالسلاح.

عادوا طريقهم إلى أبو ديس، وهناك لا يوجد مكان لينام فيه، فاتصل بالبروفسور الذي حضر وأخذهم إلى فندق "الكليف" الذي يملكه ويقع على حافة جدار العزل الاحتلالي وتسللوا إلى داخله.

كان هناك مجموعة من مدرسي الجامعه وموظفين أجانب.

ولكن الفندق محاصر من قوات الاحتلال التي تبث الرعب في النفوس واطلاق النار طوال الليل.

قال الكاتب: هناك اكتشفت أن البروفسور يخبىء مجموعة مسلحة علما أن المكان محاصر من جيش الاحتلال، وإن أكثر الأماكن خطرا هو أكثرها أمنا، ولكن أحيانا كثيرة حركتي توقعني في أزمات كثيرة، بعضها لا طائل منه وأخرى امتع لاحقا بعد انقضائها.

وأضاف الكاتب: صرت أتجول في الفندق بعدما شعرت أن هناك نساء حسناوات يشتغلن ببرنامج بيئي وينمن في جناح من الفندق، الذي

كان فندقا أربعة نجوم قبل وقوعه على خط جدار العزل واستيلاء الجيش عليه من الخارج، وكانت حركة ذكية من رئيس الجامعة لمحاولة إنقاذه من الجدار العازل، مثلما فعل في ملعب كرة القدم، حيث اعتصم المؤيدون لكرة القدم مع الأجانب مما جعل سلطات الاحتلال ترضخ للمطالب الدولية بإبعاد الجدار حوالي مائة متر بعيدا عن موقعه المقرر وسلم الملعب من المصادرة، وجود هؤلاء الاجانب لحماية الفندق.

وضحك الكاتب قائلا: وأنا أتجول وقعت في الفخ؛ حيث نادى علي جندي احتلالي مهددا بسلاحه: تعال إلى هنا، فذهبت خائفا أن يطلق النار علي، سالني: ماذا تفعل؟ فأخبره: مدرس جامعي وجئت إلى هنا من الجامعة، حسبما أخبره البروفسور أن يقول.

ثم أمره الجندي بأن يحضر الفتاة التي تلبس معطفا ازرق، لأنها تخترق الأوامر العسكرية.

قال الكاتب: عندها عرفت أنه أيضا معجب بتلك الحسناء ويريد أن يستغل سلاحه معها،

قال: كرهته تماما كجندي احتلالي، والآن أبغضه لأنه منافس لي.

كانت تسير أمامنا.. نادى عليها فجاءت.. نظرت اليه نظرة مشمئزة وقالت له: ماذا تريد؟

قال الجندي: أريد ولعة لسيجارتي. ناولته وأدارت ظهرها.

طلب الكاتب استعادة بطاقته الشخصية من الجندي ولحق بالفتاة.

لم يستسلم للنوم في تلك الليلة المنبعث منها أجواء الحرب، وشعر كمن ينام في جبهة القتال.

وخلال تجواله في الفندق، شبه المهجور، اصطدم بمجموعة مقاومين فلسطينيين مسلحين.

وقال: وضعوا أيديهم على فمي.

واخبروه أنهم يعرفون عن قدومه من البروفسور.

وأضاف: غادرتهم، ولم أخبر أحدا، ولكنني كنت قلقا جدا من اكتشافهم؛ وحدوث معركة وانقضت ليلتهمليئة بالترقب والخوف والقلق من اندلاع معركة في جنبات الفندق المحاصر والمليء بالفدائيين.

وأضاف الكاتب: في الرابعة صباحا غادرنا؛ تسللا، وركبنا سيارة، حمدت الله مطولا على سلامتنا.

وهذا السؤال إحتلني: لم يساعد البروفسور الفدائيين والمقاتلين الفلسطينيين؟ وصممت لدى عودتي أن أسأله.

عبرنا حاجزين واحدهما حاجز الخان الأحمر، ووصلنا إلى مشارف

oberkanal.com

مدينة أريحا حيث هناك حاجز مثل الحدود الدولية.. أخبرنا السائق تستطيعون العبور، إلا أننا شعرنا بحركة مدفع دبابة يتم توجيهه نحونا، فتوقفنا مذعورين وخاطبنا الجنود بمكبرات الصوت ممنوع العبورحتى السادسة صباحا.

انتظرنا حتى السادسة صباحا، تم فتح الحاجز وهناك حظك يلعب دورا إن سمحوا لك بالعبور أم لا..

بعد ساعتين سمح لهم بالعبور وركبوا سيارة إلى استراحة السفر في مدينة أريحا الحدودية.

obeikandl.com

لقاء الأردن

قال الكاتب للبروفسور: أعرف هذا الشخص، بل صوته مألوف لي علما أنه قادم من الماضي.. حاول عصر ذاكرته، وراح يقص على البروفسور حكاية زميله الجامعي "نبيل"، ولكن دون جدوى، هل هو من أيام الدراسة أم الجامعة ؟! وكان الزمن قد فرض عليه أن يعلم شبابًا أكبر منه عمرًا، الطلبة الذين علمهم أيام الإعتقال السياسي من قبل الاحتلال.

هذا الرجل الهزيل المنبعث من الزاوية، قال للكاتب: أنا نبيل، وبدأ يذّكره حتى تذكره، وعكس النبيل د نبيل، الذي لم يجد لقمة العيش، وكان يحث أباه على بيع الزيت ليكمل تعليمه الجامعي ويلبي مطامح أبيه.

شعر أن الكاتب يستغرب وجوده في كافيتريا الطب، وتذكر آخر مرة التقيا عندما رافق الوفد المفاوض، أخذه المرحوم القائد فيصل الحسيني معه؛ لكي يتخلص من لعنة الإعتقال الإداري، وفي عمان ذهب لزيارة ابنة خالته، تشبه أمه تماما، وهناك عندما نزل من التاكسي وجد نبيل أمامه، كان مشدودا نحو ابنة خالته.

وقال نبيل للكاتب أنه متزوج، ويدرّس في كلية متوسطة وحصل على

obeikandl.com

الماجستير، لم يعلق حديثه في ذهن الكاتب.

سأله: ماذا تفعل هنا في كافيتريا كلية الطب؟!

أجابه: أنا أدرّس في الجامعة. وهزالكاتب رأسه؛ غير مقتنع.

الا أن نبيل أضاف أ نه ألف 22 كتابًا وأنه يحمل رسالتي دكتوراه.

غادرهما مسرعا، وعاد بعد فترةلاهثا متأبطا مجموعة من الأوراق والكتب وفردها أمامهم.

تحدث قائلا: هذه بعض من كتبي وشهادتي.

مرّت مجموعة من الطلبة، واستأذن بعضهم ليسأله عن علامات الامتحانات.

أدرك الكاتب، بلا شك وبمنتهى اليقين، أن نبيل الماثل أمامه شخص آخر؛ غير الذي عرفه ريفي هزيل من قرية في شمال فلسطين؛ تنتج الزيت والزيتون، هذه القرية النى تلتحف منتصف جبل في طريق مدينة نابلس وومدينة جنين، وتطل علي بعض الوديان غير السحيقة المكتظة بشجر الزيتون. وفي موعد قطاف الزيتون يتسلّق الكل أشجار الزيتون. وأهلها منهمكون بالموسم، موسم الخير والبركة؛ لأن حصاد الموسم يعني سداد الديون وشراء المستلزمات وتخزين الزيت، الذي سيرتفع سعره في السنة التالية؛ لأن الزيتون يتبادل الحمل؛ أي أنه سنة

يثمر ويستريح في السنة القادمة، يخزنون الفائض ليبيعوه ويعتاشوا من الزيتونة الشجرة المباركة.

من هناك نبيل، الطالب البسيط الذي صعقته مدينتي المنتشية، التي تقبع على سلسلة جبال تنقسم أمطارها من النصف في مبنى الجامعة، والجبل الذي تربض عليه، إلى المياه التي تسيل غربا إلى البحر المتوسط وأخرى شرقا إلى البحر الميت.

تزدان هذه المدينة بأشجار الزيتون، ولكن أهلها يعتمدون السياحة أكثر.

أجاب نبيل: لا يمكنني ذلك مستحيل أن اعتاد، أنا لم اعرف من النساء سوى بنات قريتي وكنت خجلا أن أنظر في عيني أي واحدة منهن، بل لم أر شعر واحدة.. يا الله!

لقد سحقته الصدمة، وعندما جاءت سناء؛ زميلة بلدياته، وسالته عن نبيل: من هذا؟ طالب جديد من قريتك، أريد أن أتعرف بك.

كانت خبيثة؛ اكتشفت أن نبيل خجول جدا فمدّت يدها نحوه، وبعد تردد مدّ يده التي ما إن لامست يدها حتى جهده العرق.. بقيت ممسكة بيده، وهو خافض رأسه ومشيح نظره عنها، ولا يقوى على سحب يده، وهي ما زالت تتفحصه، وتتمتع بإحراجه.. لكن بلدياته تدخل،

وقال: لها إرحمي الرجل وسحب يد نبيل من بين يديها؛ وكأنما أخرجه من الغرق.

استعاد نبيل أنفاسه، بصعوبة بالغة، ولكنه شعر أن شيئا عميقا دغدغه؛ أحس بلذة غريبة،

وتمنى: آه.. ليتها تعيد مسك يدي، ولكنه مخمور بهذا الشعور الغريب.. بالكاد رأى وجهها، ولكنه صعق بها، بل بكل فتيات الجامعة.

كان منساقا مع بلدياته، يأخذه إلى هذا المكتب وذاك، ويسجل له القبول والمواد المطلوبة لأول فصل..

يستشيره ولكنه الذي يقرر ويقول له كذا وكذا وهو موافق؛ دون أن يفقه شيئا من ذلك، ويطمئنه بأنه سيفهم كل شيء. وفي السنوات القادمة سيساعد الطلبة الجدد وخاصة الفتيات القادمات حديثا؛ لأنهن سيكن "بنفس حيرتك يا نبيل".. ليس مهما أن تفهم كل شيء الآن ولكن لاحقا ستصبح محترفا، وتبدع في ذلك..

حضرت أم نبيل وأبوه معه إلى الجامعة وأوصيا عليه الدكتور دياب؛ وهو من القرية المجاورة، ويدرس في نفس الجامعة.. أسكناه مع طلاب من الشمال واطمأنّا عليه.. كان موسم الزيتون وافرا بحيث يستطيع توفير مصروف لإبنهما وتكاليف الجامعة.

الليله الأولى الصدمة الحضارية.

حدثهم نبيل كيف نام ليلته الأولى؛ محاولا إخفاء اضطرابه المسكون في أعماق غربته هذه.. الخروج من البيت يشكل له تحديًا حقيقيًا؛إنه في عالم غريب، وهل سيقضي الليالي اللاحقة وحيدا بعيدا عن أمه التي ما زالت تأتي إلى فراشه وتطمئن عليه وعلى غطائه؟ كم استيقظ ليلا؛وهي تغطيه وتنسحب بخطى وائدة كي لا يصحو. وسؤالها الدائم: هل أكلت؟

لم يجد بداً من إقناع والده إنه أنهى المرحلة الثانوية وأنه يستطيع الإعتماد على نفسه.

بعد جهد جهيد أقنعه أن يعود هو وأمه، ويعتمد عليه، كان والده يصر على أنَّ الغربة صعبة، ولكن نبيل اقنعه أن المسافة ما بين قريته والجامعة ثلاث ساعات فقط.

اقتنع الأب والأم، وغادرا صباح اليوم التالي مع آذان الفجر.

شكل دخول نبيل الجامعة أول يوم صدمة له قد تكون حضارية او اجتماعية او ثقافية، تناولها الكاتب والبرفوسور لاحقا مطولا.

وكما تجادلا حول المثقف الريفي والمثقف المديني، ونظرتهما للمدينة وللجامعة، وحاولا الإجابة على السؤال: هل الجامعة للعلم ام للمتعة؟

هل العلم للحياة أم للوظيفة؟، ونفس السؤال طرحه الكاتب على البروفوسور، حول المدنية والحضارة والتقدم، وعما بحث في لندن وامريكا ما بين العلم والجنس والمتعة.

أمضى نبيل عاما من التأمل، وجرجر أذياله مشدوها بهذا العالم السحري.. عاد إلى السكن الطلابي، هل كان يوماً مربكاً، يشعر كما الذين يدخلون الجنة.

لم يستطع إغماض عينيه طيلة الليل؛ فقد تناوبه قلق الغربة، وفي جسده تسري لذة غريبة من رؤيا الحسناوات.. لا، لم يغمض عينيه؛ تسكنه هواجس وخوف وريبة، بل تجمعت مع مشاعر أخرى غير واضحة المعالم بالتحديد..

أهو يحلم أم يرى، أم يتذكرهذه الطالبة وتلك.. صدمه هذا المكان المتدثر بالحسناوات الأنيقات الرشيقات، اللواتي تظهر مفاتنهن للعيان، فيضفي تيها وعشقا جماليا.

لا يفسد هذا المكان إلا اللغة الإنجليزية التي يضج بها المكان، بدءًا من تعبئة الطلب الجامعي والتسجيل برموز لم يقرأها في دراسته الثانوية، شعر أنه في محيط في زورق، وهو لا يجيد التجديف.

ولكن ابن القرية المجاورة هو الذي تولى تعبئة النماذج، قاده كالخروف من مكتب إلى آخر وهو مسلوب الإرادة تائه وحائر، ينشده مرة تلو

الأخرى عندما يخفض نظره ويعلو صوته.

يرفع نظره فإذا بطالبة حسناء ويخفضه سريعا بل(يتكركب)، ويكاد أن يقع على وجهه.

سلّمت عليه بعض زميلات ابن قريتة المجاورة، وعرفهن عليه أنه بلدياته، ضحك بعضهن من خجله واحمرار خديه، وهو ما يزال يشعر بضغط أيديهن الناعمة على راحتيه،

تساءل: هل ايديهن ناعمة إلى هذا الحد أم أن يده خشنة؛ من العمل الفلاحي وقطف الزيتون ؟!

obeikandl.com

أبو خديجة وقاع المدينة.

سار الكاتب والبرفوسور نحو السوق القديم، أو ما يسميه "عالم ابو خديجة".. أبو خديجة؛ رجل أربعيني ، طويل قليلا، ممتلىء الصدر والساعدين، أبيض البشرة وذو شعر أسود غامق، يمتازبنظرة عميقة، له هيبة خاصة ويرهبه كل من في السوق، علما بأنه ودود ومبتسم دائماً.

ما زال يعتبر الخنفشاري قدوته؛ ويصفه بالرجل الذي يساوي نصف المجتمع، يقول عنه أنه رجل الحكمة. ويحكي: كنت في الأردن أتجول في عمان.. نظرت إلى رجل يرتدي بنطالا أصفر وقميصا أحمر وحذاءأزرق وزنارا أبيض، خطر ببالي الخنفشاري.. حششت الخطى، وعندما أصبحت بجانبه، صرخت: الخنفشاري.

فقال بصوته الأجش: أنت السافل أبو خديجة.

وأضاف: رحب بي وعانقني بحرارة، وقف يضحك ما زالت لحيته الحمراء ولكن اعتراها بعض الشيب.

وقال: ما زلت أعرف من ينادني بالخنفشاري إنهم اصدقاء الكاتب السافل، وضحك ضحكة مجلجلة هههههههه.

توقف بعض المارة، إلا أنه لم يعرهم أنتباها، سألني عن الأحوال.

ضحكت، وقلت: في كل المهن، مش زابطة معي.

وأضاف أبو خديجة: جلسنا على مقهى عربي على بعض الكراسي الصغيرة القديمة من القش، إنه ما زال يضج حيوية،

قال لي: حدِّثني عن الزملاء والأصدقاء.. وكان يضحك، ونسي أن يطلب لي قهوة ونكل في صاحب المقهى الذي يعرفه.

وقف أبو خديجة يوما بعدما اصطحبهما الكاتب إليه، وقف على طبلية قديمة مستخدما إياها كمنصة خطابه،

تنحنح، وقال: مرحبا بكم أيها الأساتذه والكتاب والشعراء هنا في زاويتي.. أهلا بكم إلى عالمي.. بل أهلا بكم إلى عالمنا؛ عالم المستعمل، عالم المستهلك..أهلا بكم إلى عالم الرابش.. إنكم في رعايتي في حماي.. انظروا إلى هؤلاء الذين تجمعوا حولكم؛ منهم الحثالة ومنهم البسطاء والفقراء..

أضاف: ما أخشاه عليكم من بعض الاوغاد؛ الذين يغتصبون حتى الأطفال، وضحك؛ ليرى الذعر على البعض، فمنهم من وضع يديه خلف ظهره؛ متحسسا إليته؟

أبعد أبو خديجة، بحركة منه، كل جمع المتحلقين.

جلس بين البروفوسور والكاتب يسرد أحاديث قاع المدينة، كما يحب

obeikandi.com

أن يسمي عالمه هذا.

كان يتألم أحيانا من تدنٍ أخلاقي لا مثيل له..

سأله البروفوسور: كيف؟

قال: سترى الآن.. اقترب أحدهم،

فنادى عليه، وسأله: من اجمل النساء للمضاجعه؟؟

قال له: المرأة الحامل هي أجمل النساء للجنس.

اثار ذلك قرف اليرفوسور الذي نظر إلى الكاتب الضاحك:إنها مجرد حكاية.

قص أبو خديجة حكاية مجيئه إلى السوق القديم: كانت أحلامه في تأسيس فرقة فنية، لكنها باءت بالفشل.. أنتقل للعمل في السياسة، فدفع ثمنها سجنًا.ومن ثم التجارة، ففشل فشلا ذريعا.. وأخيرا، قرر الزواج.

وأضاف: وصلت حد اليأس والحيرة وسافرت إلى الأردن.

لقيني الخنفشاري في عمان؛ كما هو ضاحكا مجلجلا.

أردت أن أحكي له عن حالي، فمنعني، وقال: هذه الدنيا، اضربها

obeikandl.com

بقدمك هذه الحياة.. كن عكس التيار.

جلسا على رصيف شارع وبدأ يحكي، ويعتريه ألم خفي: أنا متفوق في الكيمياء، أعمل الآن خبازا وعجانا، اسأل نفسي لماذا؟ إنني أعاكس التيار حتى أعيد نفسي إلى نفسي.

قال أبو خديجة: هذه العبارة الطاغية قلبت حياتي، وأنا أريد أن أعيد نفسي إليّ.

لذلك؛ مرحبا بكم هنا، حيث مواطن الأشياء الغريبة، وأغرب ما في العالم هي النفس البشرية في توالفها مع تناقضاتها، وتراقصها مع أحلام القاع، والتأرجح ما بين القمة والقاع، في مكان لا يعرفكم فيه أحد، سوى هؤلاء الذين تثيرون فضولهم غير السوي، النفس ما بين درجاتها وصولا إلى الراضية المرضية حسب الخنفشاري ومتصوفيه..

بعض الشاذين منهم يتخيل كيف سيسرق ثيابك ليلبسها وآخر ليبيعها، أو يتمعن فيك رغبات دنيئة.

لكنكم هنا تملكون حريتكم، وتضحكون بصوت عالٍ، تشربون التحويجة.. ويضحك.

أريديكم أن تتمتعوا بالجلوس على هذه الأريكة، ربما كانت لملك أو لرئيس او وزير، وأشار إلى البروفسور: لا، أنت إجلس على هذه الخزنة

الحديدية.

وأضاف: اسمع كم حاولوا شراءها، وأنا رفضت؛ لأنها تمثل عالم المال.

لا حاجة لهم إلا أن يضعوا مالهم فيها، يحفظوه، وأنا أشتري كل خزنة ولا أبيعها؛أريدأن أجرد هذا العالم الرأسمالي من خزائنه، لكن أولاد الكلب ابتدعوا خزائن البنوك والفيزا كارد، وضحك.

قال: هؤلاء أنفسهم هم اللصوص الذين يسرقون ما بداخلها وتبقى فارغة، والناس تعتقد أنها مليئة..إنها النفس نسرق ما بداخلها، أو يُسرق ما بداخلها، لتبقى مشدوهة ضائعه فارغة من الهدف المرتجى والحلم الموعود.

أشار للبروفسور: إجلس على الخزنة، لقد دخلها الملايين.. متع نفسك بالجلوس عليها.

أتعلمون! عندما جاء الخنفشاري إلى هنا قبل عشر سنوات جلس عليها، شرحت له فلسفتي المستوحاة منه، فحك إسته فيها ضاحكا.

سألته: ماذا تفعل؟ قال املأ إستي بملايين الأثرياء؛ أحكها بثروتهم، وخاصة اللصوص منهم.

قال لي: هل سمعت بالقول "ما كثر مال ابن أدم إلا من شح أو حرام".

obeikandl.com

أضاف أبو خديجة : ألا تعلمون أن الخنفشاري كان الأول على الجامعة في الكيمياء؟

أخبره: لقد خففت بعض العادات بحكم الزواج، وضحك، وأنه يتوق أن يلتقيكم قريبا.

عندما أسرّ لي قائلا: أفكر أن أزوركم، وأريدك أن تجمع لي كل السفلة لأصلي بهم عصرًا.

أما أنت يا أبو خديجة فإني أعرفك.

قال له أبو خديجة: أنت قدوتي، ولكن فيك صفات لا أستطيع أن أقتدي بك فيها: نوع لباسك، وضحكتك، ولحيتك، وفي النساء.. عضّ الخنفشاري على شفتيه، وقال: (بلاش المدام تسمع..أسكت؛ خليني ألاقي مكان أنام فيه..)

قال أبو خديجة: شو، خنفشاري بيخاف!

أجابه: لا، وحياة أمك، ولكن أريد أن أنام الليلة بلا نكد.

كان سؤال الخنفشاري حول الأرستقراطية، الذي يحاول تجنبه ليخفي همومه: كيف هي؟

أكيد تهشّمت صورتي لديها، ليس وحدي ... بل هي أيضا لقدرها

مستسلمة.

قال أبو خديجة بعناد: إنها لم تتزوج رغم مئات الذين تقدموا .

قال الحنفشاري: أنا بعد عشر أعوام لا أقدر أن أنفصل عن تاريخي، فما زلت أتوق لرؤيتها، وما زلت أحلم بالزاوية الصوفية، وأجري في المختبر تفاديا لتفاعلات كيماوية.

ما زال الماضي هو تفسيري، والمستقبل لي وهم.. رغم أحلامي الثورية في الدين والسياسة. والمجتمع تكسرت على خشبات عبوري لجسر الغربة.

لقد أضحت اعتبارات غائبة.

اسمع، أخبرها أنني سأعود، رجعت اقرأ كتبي القديمة؛ لأستعيد روح الثائر، ولكنني أنكسر عند رؤية من قطفوا النتائج.

لدى مغادرتهم قاع المدينة، سألت أحلام (المرأة الغامرة) الكاتب: من أبو خديجة هذا؟

أجابها: إنه نموذج استثنائي؛ رجل لا يشبه الخنفشاري، ولكنه مقحم في تكوينه رغم أنفه، قد تدفع الحياة الناس باتجاهات مختلفة ومتنوعة ولكنه رجل غير مألوف، يعمل في قاع المدينة.. رجل آخر لا تعرفه، سوى أنه من زمن آخر.. إنه من السوق القديم العالم السري والذي تخفيه المدن،

وترحل نحو ضواحيها الجديدة، وطرقها الرحبة..إنه مكان يطوف فيه الفقراء والبسطاء والفلاحون والمهمشون، بعيدًا عن الضوضاء.. يباع فيه كل شيء قديم وتالف.

هناك القمامة تتحول إلى مال والملابس القديمة والأثاث القديم..

عالم له نكهة خاصة ومليء بالحكايات لا يشبهه أي مكان آخر.

أناس طيبون إلى حد الجنون وسيئون إلى حد العنف.

جاء به إلى المكان الخنفشاري، حيث كان يسكن هناك حيث يعرفه الجميع على إنه الأستاذ، لأنه طالب جامعي.

وهناك كان يعود أبو خديجة بعد كل رحلة وعثرة، يسمونه في السوق: الخبير، والدكتور، وأبو خديجة؛ لأنه مصلح، وطبيب أعشاب، وتاجر، ووسيط، وسمسار.. يتاجر في كل شيء ماعدا الدعارة والمخدرات، ولكنه يعرف التفاصيل، ويفض النزاعات.

يرهبه الكثير منهم؛ قضى ست سنوات من عمره في سجون الاحتلال، مقاومًا، وأحيانا مستسلما" لقدره.

يمدح كثيرا معلمه الخنفشاري ويتحدث بلغة السوق ولغة المثقفين .

هناك عالم آخر يطلق عليه البعض "قاع المدينة".

obeikandl.com

يدخل كل ساكني المدينة منهم العابرون الذين لا يعرفون كيمياءه.. هنا كان يسكن الخنفشاري، وتعرف بدقة العارف على كل صنوفه: فيه الصدق والغش والأمانة والخداع.

هنا أطفال يشتغلون خلافا للأعراف الدولية لحقوق الطفل، معلقا بسخرية أبو خديجة.

ويُمارسُ البغاء والرذيلة في هذا المكان.

ويعتبر أبو خديجة منشد كل ضال؛ باحثا عن دواء او حكاية او نصيحة زوجة.

يبدو ضاحكا، ما بين الوسامة يوما وآخر بطعم السوق شعبيا.. يضحك يبتسم.. تهمس في أذنه إمرأة في الثلاثين يقف زوجها بجانبها.

تقول له إنه يوجد حبة قد ظهرت في مكان ما تخجل من ذكره وتخجل من الطبيب.

مال على صديقه الذي بجانبه قائلا: الليلة سأكشف على هذه المرأة لأرى الحبة التي ظهرت لها في... .

سأله: كيف؟

قال: لأنني طبيب الأعشاب، وهي تخجل من الطبيب العادي،

obeikandl.com

وضحك.

قال له صديقه: بعرضك، خذني لأساعدك.

أجابه: بشرط، بسيارتك، أأنت موافق؟

فأجاب صديقه: نعم.

وصلا مساء إلى البيت خرج زوجها من الغرفة وخلعت ملابسها، تركها تفعل كما راقصات التعري كان ابو خديجة يأكلها بعينيه.. لمس.. تفحص، ونادي على صديقه: تعال.

احتج زوجها:لماذا؟

أجابه أبو خديجة: إنه مساعدي وأستشيره في المسائل الصعبة.. هل تريد ان تشفى زوجتك؟

أجاب الزوج المسكين: نعم.

دخل صديقه إلى نفس الغرفة.. وعد بعمل مزيج أعشاب لها للعلاج ومن الغريب على حد زعمه أنها شفيت.

ومنذ تلك اللحظة أعجبه العلاج، وأشاع أنه طبيبٌ نسائيٌ، حتى جاءه رجل وهمس في اذنه.. ارتجف أبو خديجة وقال نافيا قدرته على ذلك.. توسله الرجل، فاستجاب لرجائه.

obeikandi.com

أدخله الدكان وخلع الرجل لباسه.. ارتجف ابو خديجة.. ووصف له بعض المراهم، عندما عرف أن الرجل كان يبول بجانب حائط حجري، وتناول حجرا" ليجفف البول دون أن ينتبه، حتى شعر بوخزة مريعه، وجد أنها عقرب أسود صغير يلسعه في عضوه.. صرخ بأعلى صوته متألما.

لم ينم منذ يومين، وهو خجلان من أن يعرف أهل قريته بالموضوع لأنه سيضحي مجال تندر.

ضحك الكاتب والبروفسور، وسألاه: ماذا فعلت؟

قال: ذهبت إلى الصيدلية وأحضرت مرهما" مخدرا" قويا" جدا للالم؟ ومزجته مع النعناع وأخذت أجرا عاليا.

عاد إلي الرجل بعد يومين شاكرا، وأن الإنتفاخ والألم زالا وعاد إلى طبيعته، وأن هذا الدواء سحر، وقدم لي هدية: بعض الجبن البلدي.

عندها غضب أبو خديجة لأنه اتهمه بعمل أدوية ومنشطات من الفياغرا ممزوجة بالنعناع .

نادى شخص على أبو خديجة.. التفت اليه ضاحكا، وعانقه قائلا: (من زمان ما شفتك).

(من الست الحلوة اللي معك)؟

دفع اليها بكرسي قش قديم، وطلب لها زنجبيلا" من المقهى، وأضاف مناديا على صبي القهوة: دفع اليه بصرة وقال له: كاسين من هذه التحويجة.

سالت المرأة الغامرة: ما هو؟

أجابها الكاتب: إنها تحويجة أم الأربع وأربعين.

قالت: هذه الحشرة التي تلدغ مثل العقرب؟

ضحكا، وقال: لا، إنها مجموعة أعشاب يخلطها أبو خديجة بطريقته..

سألت: ما طعمها؟

أجابها الكاتب، ساخرا: لا أعرف.. هو مزيج سيء من المر والحلو والورد والنعناع والزنجبيل والزعتر والعلقم وغيرها.

وأضاف: صدقيني، أنا مستعد للتخلي عن كأسي لك.

هنا، قال له أبو خديجة: أنا أكرمك، وأنت جاحد! وضحك..

سأله الكاتب: ما اخبار قوائم ولوائح الزواج؟ (بدي عروس).

أجاب أبو خديجة: هناك قائمة من النساء لدي من تريد الزواج؟ إنهن عوانس ومطلقات وفتيات جامعيات.

obeikandl.com

إنه مجرد عمل معروف، ليس إلا.

وهو متورط في كل أعمال السوق ما عدا الدعارة والمخدرات.

وصف الخنفشاري أبو خديجة قائلا: يطيل النظر في المرآة ويعتريه الغرور، بما لا يحمد عقباه، ينتقل في حيرته القاتلة إلى كل الأعمال بلا تريث ولا حسبان، ويقفز إلى حقل الأنتهازية كما تتنقل النحلة قاطفة الرحيق ولكنه يحصد الفشل تلو الآخر.

ويتعكز على أهله في سداد خسائره المتلاحقة..

وأخبرهم عن تجربته كمطرب: مرة اعتقد أنه مطرب عظيم، وسافر إلى الأردن وشكل فرقة موسيقية من المال الذي بعثه أبوه إليه للدراسة وفشل، وأبوه لم يمل من إرسال المال ويسافر الاب ليجد ابنه يغني..

قرر الأب قائلا : يجب أن أزوجه حتى يستقر، ويتخلص من رعونته ويدفع تكاليف تجهيز الزواج وكلفته العالية .

ينزل إلى سوق العمل الأسود كعامل بناء يفتقد للمهارة، لا يستطيع تحمل مشاق العمل ويقرّر أن يتحول إلى عامل فني بل إلى مقاول، ويبدأ في تشكيل شركة للمقاولات وينجر من فشل إلى فشل.

يدفع والده الخسائر مجددا والأم تدافع تحت مسمى سوء الحظ، وتقول أن أصحاب العمل نصابون كذابون، والعمال لا يتريثون.

obeikandl.com

يتحول إلى التجارة مجددا والنتيجة الفشل المحتوم معروفه سلفا، ويذهب إلى عالم الانتخابات ويحصد من المرشحين بعض المال، ويعطيهم الكثير من الوعود بالنجاح ويسطع نجمه كبائع أصوات النجاح ولكن المرشحين الذين ركنوا إليه حصدوا الفشل..

سافر مرة أخرى إلى الخليج العربي؛ بحثا عن الثروة الموعودة، بحثا عن قنص ثري من هناك ليغطي طموحاته.

اشتغل بوابا لعمارة هناك، وعاد يلبس دشداشة بيضاء، مثل أمراء الخليج، ويتحدث عن مشاريعه والتي ستثمر لاحقا. وبعد عامين رآه صديق؛ يحرس باب عمارة.

عاد زائرا، وجد نفسه مفضوحا وانكشف سره.. اتجه للتجارة، مجددا، وأعلن عن نفسه خبير أعشاب يداوي العجز الجنسي والإمراض المستعصية من الصدفية والبهاق.

خاف أن ينكشف، فقال محدثا: إن أفضل تجارة ناجحة يجب أن تتصل بالنساء، بحث عن امرأة غنية وثرية لتزوجها وتتحمل أعباءه.

وسأله الكاتب: إذن ستستفيد من أعشابك الممزوجة بالفياغرا في الطاقة التي تحتاجها المرأة.

ضحك، قائلا: لقد جربتها، فخرّبت أكثر مما عمّرت، (ولو أنه يوجد بي

obeikandl.com

حيل لتزوجت). ثم قهقه..

قال الكاتب: إذن تبحث عن منفذ لاتجاهك الجديد؟!

أجاب أبو خديجة: هذه الحياة، ضَربتُها بالطول والعرض، بقيتْ كما هي؛ بلا جديد، بل أنا لم أتغير، ولولا أنني كما أنا، لاندثرت سريعا.. على كل حال أنا أعيش، خداعا لنفسي وغيري، والكل يصدق ولا يهتم.

وعندما ودعاه، قال: اسمعا، نسيت أن الخنفشاري قادم لزيارتنا.. سأهاتفكم.

قالت أحلام: وأنا معكم، لا تنسوني، أريد أن أتعرف على الخنفشاري.

obeikandl.com

المجنون ينام في حضنه.

حدثته الأرستقراطية عن الخنفشاري، وكيف كان له صولات وجولات في معتقله، كانت تنام في أحضان الخنفشاري تستحضره كل ليلة.

تذكر الكاتب حادثة تشبه نومها في حضن الخنفشاري، أفاقت مذعورة؛ لأنها اعتقدت عندما استيقظت أنه شخص آخر، كانت تحلم به وتبغضه جدًا، يطاردها ويلاحقها ويصر على موافقتها على الزواج منها، وهي تعتبره فارغ المحتوى والمضمون، فأين هو من الخنفشاري الذي يحتلها تماما.

قالت بأنها لا تعرف كم صرخت، ولم تهدأ حين حاول الخنفشاري طمأنتها.

ضحك الكاتب مطولا.

قالت: لا تضحك عليّ.

أخبرها عن حادثة قد جرت في بيتهم، وكيف ظل الرجل يصرخ مذعورا أكثر من نصف يوم، والسنتروزي مريض نفسيا حضر إلى بيتهم برفقة ذويه من شمال فلسطين، أصيب بنوبة من الجنون فأخذوه

obeikandi.com

إلى المستشفى الوحيد للأمراض النفسية، وهو في مدينة بيت لحم.

تكاليف الفندق عالية؛ففضلوا أن يذهبوا إلى بيت صديق هناك وهو والدي، وجهزت والدتي العشاء وفرشت على سطح البيت، وكانت تقول: الصيف واسع.. وناموا ليلتهم الأولى.

وفي الصباح الباكر، أخذا السنتروزي إلى المستشفى، كي لا يثقلا على أهل البيت.. عادا في المساء المتأخر، معهما ابنهما الذي عولج من لوثة الجنون. وأصرا أنهم تناولا العشاء قبل القدوم وأنهما غدا صباحا سيراجعان الطبيب؛ ليعودا إلى قريتهما في الشمال.. كان الخجل باديًا عليهما؛ لشعورهما بأنهما يثقلان على أهل البيت.

سهروا قليلا بعد تناول الشاي.. غطوا في نوم عميق.. استيقظ المريض نفسيا ولقبه "االسنتروزي" ليتبول، نزل عن السطح، وذهب بعيدا ولم يعرف من أين نزل؛ لأن البيوت متشابهة في الحي، وهي طابق واحد، وكثير من الناس يفترشون أسطح البيوت صيفا؛ هربا من حرارة الصيف.

تجول السنتروزي حتى الفجر.. اعتقد أنه قد وجد البيت، فصعد إلى سطح منزل واندس في فراش رجل من الجيران وضمه إلى صدره.. استيقظ الرجل فوجد السنتروزي يحتضنه، وكان قد رآه في تلك الليلة، وعرف أنه المريض نفسيا وأن نوبة من الجنون أصابته.. تجمد مذعورا، وساكنا، حتى غط السنتروزي في النوم العميق، فتحرر منه، ثم وقف،

وبدأ يصرخ على والدي: تعال، خذ المجنون.

بسرعة نزل والداه وأحضراه،

إلا أن الجار بقي يصرخ طوال اليوم من الفزع.

قال الكاتب: تصورت كيف ضم النائم بين ذراعيه ليستدفىء به من برد الصباح، وبدأت أضحك، وأخذ الكل يضحك ما عدا جارنا الذي انكفأ راجعا غاضبا وشاتما ودخل إلى بيته لينام.

ما زال ابو خديجة يضحك، ويقول: أنا والقدر المجنون هكذا إنه يضمني وأعلم أنه المجنون نصف العاقل، بعدما يتعافى من نوبته.

obeikandl.com

المحاكمة.

دخلت الأرستقراطية إلى قاعة المحكمة، فوجدت رجلها مرتبا متأنقا، خارجًا من عباءة الخنفشاري وملابسه متناسقة، عكس السابق؛ لأنه لا يملك إلا لونين يفرضهما السجن.. ممشط الشعر.. رتب أطراف لحيته الحمراء.. لمّع حذاءه..

اقتربت منه.. ضمته.. لم يعجب ذلك والدته العجوز، التي صرخت: عيب.

لم تعرها أنتباها، فقبلته رغما عن الحارس.. دخل القاضي العسكري الاحتلالي إلى المحكمة.. وقف الحضور.. اقترب رجل من القاضي وناوله الملف السري..

بعدما استمات المحامي في الدفاع عن رجلها، أصدرالقاضي حكما عليه بالسجن لمدة عامين ونصف بسبب الملف الأمني السري.

صدمت، وانفجرت باكية.. احتضنت العجوز.. كانت تحلم بعودته معها.

طلبت من المحامي أن يستأنف، فاوضح لها ان هذه أحكام رجال المخابرات وهذا حكم عسكري، وما عليها إلا القبول.. ووضح

obeikandi.com

محاولته عمل صفقة بلغة المحامين مع النيابة العسكرية، وتوصل إلى أقل حكم وافقوا عليه.

صرخت: إذن المحكمة شكلية!

أومأ المحامي برأسه موافقا، وكيف لو أصر سيحكمونه العقوبة القصوى؛ والتي تصل إلى عشر سنوات لتهمته.

امتلأت حنقا.. حاول الخنفشاري تهدئتها، فلم تتقبل الأمر.. شعرت أنها تحبه أكثر.

إنها ممنوعة حسب عرف العائلة من الزواج إلا من ابن ذوات. وأما الخنفشاري فمجرد رفيق جامعة، حسب كلام أمها، وبعد التخرج ينتهي كل شيء.

هو يعرف ولكن في الإعتقال تغيرت الظروف.

صدمتها أمه بسؤالها: هل تستطيعين تحمل شظف العيش عندنا في القرية، في بيتنا المتواضع مقابل قصرك.

أنت يا بنية تتسليْن بالموضوع. لكنها غضبت وشعرت أن الخنفشاري قضيتها، إنه حلمها وأنتماؤها.

لم لا يكون زوجا، بل وعيا حلما جميلا.

obeikandl.com

تذكرت قوله لها: إن بنات الكبار يعملن ممرضات متطوعات وهو أكبر عمل إنساني، إشارة إلى أنها ممرضة له.

وسألته في المحكمة: هل تقبلني زوجة لك؟

لم يجبها، كعادته.

تذكرت: كان يغرقها بعشرات الأسئلة عن الوعي والطبقات والزهد والتصوف.

شعرت أنه يملك كل عقلها وقلبها.

عادت إلى البيت.. قررت المكاشفة.

جلست مع أمها، وسألتها: ماذا لو تزوجت رجلا خارج تخطيط العائلة؟

قالت الأم: الجامعه مرحلتك أنت، وبعدها ممكن سنتين أو ثلاث تعودين إلى النظام المخطط لك، زواج ابن أحد العائلات، ومن الممكن أن تستمري بعملك الخيري الإنساني.

كرهت الإجابة، أخبرت أمها أنها تحبه وتعبده.

أجابتها الأم: لا أحد يموت من الحب.

oberkanal.com

في الزيارة اللاحقة، شتمته الف شتيمة من شتائمه التي اعتادت سماعها، وها هي تتجرأ على التفوه بها لأول مرة.

لم يعجبه سلوكها.. نظرت اليه فهمت؛ يجب أن تبقى "هاي "كلاس" كما تربت.

obeikandl.com

السنة الجامعية الثالثة: الحب يجتاح نبيل.

كان هذا العام لنبيل الأهم في حياته؛ حيث تستقبل الجامعة فوجا جديدا من الطلبة، فوقف على أبواب التسجيل؛ لعل واحدة من الطالبات الجدد تطلب المساعدة.

استفسرت وفاء؛ الطالبة الجديدة، فاندفع يساعدها ويملأ الاستمارات.. اكتشفت سذاجته، وجاملته.

أصبح يلتصق بها التصاقا، فهو يعرف برنامجها وغرف المحاضرات، وساعات الفراغ.

حاولت التملص منه، فلم يجد ذلك نفعا، فقرّرت أن تستغل هذا الطالب للتعرف على أجواء الجامعة، التي طالما حلمت بها، والانطلاق والحرية والحفلات.

جلست معه في كافيتيريا الجامعة، فانهالت عليه بالأسئلة عن هذا العالم.. كان يجيب، مسرورا، عن كل سؤال، سواء يعرفه أم لا.

سألته وفاء: هل تجيد الرقص الأجنبي؟

أجابها، كاذبًا: نعم، الفالس.

obeikandl.com

ضحكت، وقد أرادت إحراجه.

قالت ساخرة: استعد أريد تعلم رقص الفالس.

تجمد في مكأنه، وقال لها: هل بيئتك تسمح؟

أجابته: نحن في الجامعة؛ عالم الأحلام والدراسة.. والرقص، أريده بكل جوارحي.

أتعرف كازانتزاكيس؟ كم تمتعت بروايته عن زوربا، عن الرقص وشاهدته فيلما سينمائيا.. منذ ذاك الحين وأنا أحلم بالرقص.

أتعلم، كما فعل زوربا.

غادرت إلى محاضرتها.

شرب أنفاسه.. سأل زميلة له في الفصل الدراسي كيف يتعلم رقص الفالس.

ضحكت، واستعدت أن تعلمه الرقص على أصوله، فانفرجت أساريره.

وكذلك رقص زوربا؟ وأجابت أنها لا تعرف.

سأل نصف الجامعه، حتى وصل إلى مثقف وأخبره عن القصة اليونانية، والتي تحولت إلى فيلم فيها شخصية زوربا الراقص، ليس كرقص

obeikandi.com

ترفيهي، بل رسالة عميقة للنفس واكتشافها،

لخلق توازن مع العالم البائس.

قررت التخلص منه، فصارت تضغط عليه كلما التقته وتطلب الهدايا والمطاعم الفخمة والأحذية.

اضطر للعودة إلى القرية أكثر من مرة ليطلب المال من أهله؛ تحت دعاوى أثمان كتب ومختبرات وأعذار مختلفه.

أنهكته تماما.. كان يشعر بالسعادة المطلقة.

انقضى العام الأول لها وهو يشعربالحب والسعادة، ويتبختر مع وفاء في الكافيتريا، وغالبا في جنبات الجامعة.

وجدت وفاء ضالتها في السنة التالية في شاب صايع لعوب ومتفتح، يأخذها إلى الحفلات ويتقن الرقص.

تركت نبيل وأخبرته: نبيل شكرا لك على حبك.. اليوم انتهت علاقتنا؛ أنا حرة.

الوداع وأرسلت له قبله في الهواء.

لم يصدق في البداية، لكن سرعان ما أدرك جديتها، فأصابته صدمة غير عادية.

obeikandi.com

عاد إلى البيت.. اعتكف.

ذهب أصدقاؤه اليها، فرفضت.

عندما علم بقرارها النهائي، جاء إلى الجامعة، وصعد إلى برج الكنيسة مقررا الإنتحار.

ظل نبيل يطاردها، ويتوسل إليها وهي تصده.. يحاول إغراءها بالمال.. فقط، كلمة لطيفة تتلذذ في تعذيبها له.

أضحى أداؤه الأكاديمي سيئا" جدا، حتى سحب بعض المواد الدراسية.. تعاطف المدرسون معه؛ لتجاوز المحنة.

حالته تسوء.. يمرض.. تتراجع صحته.. يحاول التقدم ولكن ببطء.

تتزوج وفاء ذلك الشاب.

يبدأ مرحلة شد العزيمة، أداؤه الأكاديمي جرجرة؛ فبدل أربع سنوات دخل عامه السادس.

جرب الحب مرة اخرى، بحث عن امرأة اعتقد أنها أسهل من الأولى لأنها مطلقة.. عندما عرفت تبريراته، رفضته بعنف وشتمته بأقذع السباب قائلة: انصرف، أنت رجل أخوث.. ولا أريدك..

لم يصدم؛ وتقبل الأمر.

obeikandi.com

تخرّج من الجامعة، فصفّق له الكثير من الطلبة، الذين أحبوا هذا الرجل الساذج، التعبان، طيب القلب، ضحية امرأة طاغية غاب عنها الوفاء.

obeikandl.com

نكأ جراح الكاتب

انقطعت أخبار نبيل.. سافر الكاتب مع الوفد الفلسطيني، بعد سبع سنوات، وذهب لزيارة ابنة خالته؛ كبيرة في السن وتشبه أمه.. نزل من التاكسي في حي الأشرفية بمدينة عمان .. صوت ينادي عليه بإسمه، فنظر نحو الصوت، إنه نبيل.

ماذا تفعل؟ أسكن هنا ومتزوج.. يفخر بها.. أدرّس في الجامعة..أحمل شهادة الماجستير، وأُعد للدكتوراه.. كان يحلف قبل كل جملة وبعدها؛ لأن الذين يعرفون أنه قد تخرج من الجامعة بعسر شديد، ومن أين هذا التغيير وهذه القوة!

رأى الشك في عيونه، فقال: اسأل أم مروان قريبتك.

وفعلا، سألها، وقد أنتابته الحيرة، فهو لم يره منذ ذلك العهد حتى دخل جامعة القدس، وإذا بصوت ينادي عليه اتجه نحوه، وقال: ألا تذكرني؟ أنا نبيل ... برج جامعة بيت لحم والأنتحار؟

جلسوا، وطلب لهم الشاي وأخبرهم أنه سيعود، وعاد بسرعه.. وضع امامهم شهاداته ومجموعة من الكتب التي ألفها حيث يحمل شهادتي دكتوراه .

obeikandi.com

وبدأوا يستذكرون الماضي ومروا على وفاء، فأخبرهم أن ابنتها احدى طالباته، وهي تشبه أمها وكيف شفى غليله، عندما سمع أن زوجها اعتقل بتهمة الإحتيال.

قص عليهم حكاياته بعد التخرج وزواجه من اثنتين، واحدة في الأردن والأخرى هنا.. يقسم وقته بينهما؛ لكل زوجة ثلاثة أيام ويوم استراحه، ولا يحق لأي منهما من حصص الأخرى شيء في حال مرضت أو غابت أو سافرت.

استذكروا الماضي، وجاء ذكر الفنان الرسام اليساري عدنان الذي يعتبر أن الفن هو الأرض والجذور، رسم يوم الأرض هذا اليساري، بكوفية حمراء.

ذهبا إلى الفنان وهو صديق قديم، فسألته زوجته: نبيل هل فعلا أنت دكتور جامعة ومتزوج اثنتين وكما أخبرني زوجي؟

حاول أن يجيب، فأسكته الكاتب، قائلا: إنه نبيل بلا وفاء، أنا أجيب عنه لأنه.. لوحة فنيه يقرأها الناس كيفما يريدون، وأنا اعرفه منذ زمن بعيد عندما كان على حافة الجنون، ورأيته عندما أنتقل إلى حالته الراهنة، وبين كلتا الحالتين خيط رفيع، إذا ما كان الخيط مستقيما فنقول أن نبيل أنتقل من الجنون إلى جنون العبقرية، أما إذا تحول إلى دائرة فيوجد خط وهمي ما بين الجنون والعبقرية، كما هو خط وهمي ما بين نبيل الفاشل والناجح، ونبيل المرفوض نسائيا وزوج الإثنتين المتوافقتين على تقاسمه.

عندما بدأ الكاتب يفسر نبيل انفجر ضاحكا، وأضاف إنه طالب سنه ثانية حقوق إلى حانب شهادتي الدكتوراه التي يحملها.

obeikandl.com

بيروت

قال لها الخنفشاري: أتريدين أن تكوني كمن اختاروا له زوجة؟

رمت نفسها على صدره قائلة: كيف سيكون مصيري، أيها الخنفشاري اللعين؟!

غيابك في السجن غيرني، حولني إلى ما أنا عليه وكسر تراتبيتي وهشّم منظومتي.

كنت أسير على خطى عائلتي؛ من التربية الحازمة.. كنت أشعر أنني ممتلئة حرية هكذا، ولكنني الآن مقيدة بأصفاد لم أكن أدركها.

أضافت: وكيف، ومن الذي أغصبوه على الزواج من إمرأة؟

قال لها: رجل جاء إلى السجن؛ هاربا من الزواج.

إنه ما سأسميه لك "البيروتي"؛ لأنه درس هناك ولم يكمل، تشعرين أنه يسلبك بحديثه، لأول مرة، وعندما تتعرفين اليه، جيدًا، تشعرين أنه رثٌّ؛ لا يساوي اسمه ولا لقبه، وأنه محض هراء.

غادر إلى بيروت يحمل أحلام أن يتحول إلى فدائي؛ هربًا من ترتيبات والده.. حلم أن يصبح بطلا، فوالده فلاح قاسٍ؛ يؤمن أن العائلة

obeikandi.com

والأسرة والتقاليد شيء مقدس، وما زال يؤمن بالزواج على طريقة البدل؛ وهو نمط زواج متخلف يتبادل فيه الرجل أختا بأخت او بنتا ببنت أو ابنة بأخت، والبدل شرط الزواج.

اختارو الده له ابنة أخيه وهي أكبر سنا منه كما يقول إنها شِنْعَة، مقابل أن يتزوج ابن عمه أخته الكبيرة في السن، وعلى قدر متواضع من الجمال.

جن جنونه، وارتعب من الفكرة عندما تأملها جيدا.. جاول اقناع أبيه بمضار زواج الأقارب، ولم يجرؤ سوى أن يأتي على ذكر ذلك كعلم، فنهره أبوه بشده، وقال: لن أسمح لأختك أن تعنس، وصرت واعد أخي.

كان يتجول في بيروت، ويقارن حسناواتها مع ابنة عمه، فيكاد يصعق.. احتللن عقله، فلم يستطع تحمل فكرة زواجه منها.

ذهب إلى حافلة للمستوطنين واعتلاها..أخرج من جيبه قنبلة يدوية وصرخ.

لم يجرؤ على تفجيرها، فاعتقل وحكم بالمؤبد.. كان سعيدا بالسجن، وعندما أفرج عنه في صفقة تبادل الأسرى عام 1985، كان الوحيد حزينا بالحرية.

لم يستطع رفضها لسببين الأول جبنه الشديد، والثاني عدم زواجه يعني

طلاق أخته وكسر تقاليد العائلة.

يدعي أنه ثوري ولكن عند الأسرة يركع أمام أخته.

نظر الخنفشاري في عينيها، فوجد دمعة على وشك الإنسكاب.. ضمها.. شهقت.. بكت..

أضاف: في نفس المكانة تجلس فتاة، تعاني الرفض لذاته.

هل تريدين أن تشبهي البيروتي؟ بكت الأرستقراطية وقالت: أتعذبني؟ ثم نهضت وغادرت.

obeikandl.com

امرأة وثروتسكي

في ذلك اليوم كان البروفسور العائد من أمريكا يتبادل أطراف الحديث مع نبيل.

اندفعت نحوه فتاة سلمت بحرارة.

بعد انصرافها، قال الكاتب: إنها زميلة دراسة؛ كانت تجتر الأدب الجاهلي وتمعن في مديح الشنفرى يبدو أنها تصعلكت فكريا.

الصعاليك والعرب هل شكلوا ثورة قبل أوأنها لتحرير العبيد.

تفاجأ مالكوم اكس؛ الزعيم الامريكي الأسود وهو مسلم من جماعة أمة الفرقان، تركها بعد قيامه بفريضة الحج.. بعث رسالة تقول "إن العرب ليسوا عنصريين؛ يصلي الأسود بجانب الأبيض، ويأكلون في نفس المطاعم وينامون في نفس الفنادق."

كانت أمريكا تمنع السود والقطط والكلاب في نفس الإعلان من دخول مطاعم البيض.

تبدو، كما كانت؛ امرأة غضة مبتسمة، قالت: آه، أنت كما أنت لم تتغير؛ تملأ الدنيا صخبًا صديقي الكاتب، كنت، أيام الجامعة، عندما أرى

obeikandl.com

حلقة طلابية أعرف أنك في مركزها؛ وأنهم يتحلقون حولك، دائم النقاش والحديث.. تخلق جوا واحدا، كما كنت تثير أعصاب الماركسيين في النقاش؛ لاختلافك معهم، وأنت تقول لهم: أنا ثوري، ولا أحد يزايد عليّ.

سألها الكاتب: ما أخبار الشنفرى؟

قالت: لقد دفنته عند بداية كلية الحقوق والقانون.

تخرجت وبحثت عن التعليم، ولكنها واجهت الرفض من سلطات الاحتلال، اشتغلت بالتعليم بعض الوقت.. قررت إعادة الدراسة لتعمل بحرية دون قيود الاحتلال التوظيفية، غيرت تخصصها إلى الحقوق، وبدأت من جديد.

حضرت محكمة عسكرية لأخيها، وشعرت أنها يجب أن تدافع عنه، لأنها أفضل محامٍ عن الصعلوك الشنفرة.. كانت من مدرسة المذبوح، وكانت من روادها، ولا أدري هل غفر لها نبيل، أم أنهم مجرد زملاء بل إنهم أعز أصدقاء؟

بدأت بدراسة القانون في هذه الجامعة، وسرعان ما تفوقت وشعرت أنها كانت تائهة هناك في تخصصها الأول، علما بأنها كانت متفوقة.

قالت: لا أعرف أي حقل أحبه اشعر أنني أذوب فيه وأصبح متجسدة

به، هذا ما حصل لي علما أن الكثير حاولوا إحباطي، قائلين: هل تبدئين من جديد، الزمن يُستهلكك والحياة قصيرة، لكنني كنت مصرة على التمتع بها على طريقتي، وجنيت التميز، وواصلت دراستي العليا في الجامعة وحصلت الدكتوراه، وها أنا اليوم محاضرة في نفس الجامعه.. هز نبيل و البرفسور رأسيهما موافقة على ذلك، تغيير الدراسة إلى محاماة بعد اللغة العربية .

قالت: كنا نجلس مع ذلك التروتسكي، نعتبر أنفسنا أكثر ثورية من بقية الطلبة، وهناك فتى بائس من المخيم، قال: سأسافر إلى الغرب اللعين وأدرس، فكم تعلق بالصعاليك، وقرر أن يضع نفسه منهم وينزع عنه اسم لاجىء..

في ذلك اليوم جاء وفد إلى الجامعة من نيوزلندة.

وجد أن رئيس الوفد معجب بحكايات المخيم وعذاباته.

أسهب في الحديث وشعر أن هناك صداقة نشأت بينهما،

أخذه إلى المخيم.

تجولا وسط بؤس المخيم حتى المساء.

سأل النيوزلندي: كيف تعيش تحت سقف الصفيح؟

obeikandl.com

وكانا يجلسان في علّيّة على ظهر الغرفة؛ مسقوفه بالصفيح لليالي الصيف، يصعد إليها عندما لا يطيق النوم في الغرفة.

نادى أمه، بأعلى صوته:أحضري دلو الماء يا حجة، وأدلقيه على الصفيح.

دلقت أمه الماء على الصفيح، فدلف الماء عليهم.

وقال له النيوزلندي: كيف تعيشون تحت المطر؟

قالت التروتسكية: هذا مطر الصيف منعش فكيف بالشتاء والبرد.

انطلت الحيلة، علما بأنها امرأة لا تعرف الخداع.. لم تعتقد الأم أن ابنها أخبر النيوزلندي أن هذا مطر، وحسبت أنه سيساعدهم، وربما يختلف عن سيل الوفود الدولية القادمة إلى المخيم.

عرفت لاحقا أنه سيأخذ ابنها إلى نيوزلندة، وبدأ يرتب أوراقه وشهاداته ليسافر، تمنت له حياة أفضل من بؤس المخيم، أرسل النيوزلندي بعثة دراسية لاكمال تعليمه العالي هناك.

كان حديثها ممتعا" جدا، وأخبرتهم ان هناك تروتسكية نابلسية أخرى معهم من مدرسة المذبوح، وكانت تتصادم دائما مع الخنفشاري.. كان يؤمن أن الدين لدى الاثرياء مجرد ديكور، وأراد البرهنة على صحة قوله، أتذكرين؟

كانت تقف مع والدها القادم من نابلس، والذي ينحدر من أرقى عائلاتها، وما زالت نابلس تحتفظ بمكانة العائلة في السلوك والزواج وغيره.

والدها شيوعي، ومادي النزعه إلى أبعد الحدود.

يخاطب ابنته، وهي مصغية إليه.. ولكن يبدو من مظهرهما حديثه أنه كارثي.. قالت له إحدى صديقاتها اإنه يحادثها عن حبيبها، وهو مسيحي وهي مسلمة، وهذا انكسار للمعايير حسب تعبير صديقتها، وهذا نوع الزواج مرفوض؛ لأنه يشكل إنتهاكا للبعد الديني وليس الإجتماعي، ووالدها يسكن مدينة نابلس، وما زالت بعض العائلات ترفض مصاهرة أخرى، لأنها ليست من نفس المستوى الراقي، كما يدعون.

مما يستفز الخنفشاري كثيرا، ويقول: لو إن هؤلاء الأرستقراط زوجوا بناتهم وهن صغار السن، لما وجد وفرتهن الرائعة.

خرج والد التروتسكية من الجامعة وابنته تنظر إليه، فسارعت صديقتها إليها وجدتها منهارة وتبكي، لأن والدها أخبرها أن مسألة الدين عنده ليست مهمة نهائيا وهو يؤمن بالمادية.

بالنسبة له الدين أفيون الشعوب، ولكن الأثر الإجتماعي هو الأدهى.

قالوا:هذا الاثر نوع من التخلف، ولكننا نواجه آثاره، وهو يعني

الفضيحة للعائلة والأسرة.

قال لها: ستواجه أخواتك عار خطفك مسيحيا.

ستواجه الأسرة هذا الوضع، وأنت حرة الاختيار فكري جيدا، وغادر.

كانت تنتظر قدوم والدها، فقد حزمت أمرها على الزواج منه. لقد أخبرته أنها تحب مسيحيا، واعتبرت أن والدها، الليبرالي جدًا، سيوافق على الزواج.. لم تتفاجأ بدهشته علما أن والدتها كانت معارضة للموضوع تماما؛لأن هذا فضيحة.

جاء إليها المحب، والذي خشي أن يحدث والدها، ولكنها أبقته قريبا ليقابل الوالد. إلا أنها وجدت أن لا فائدة، يضع العواقب الإجتماعية أمامها ويترك لها الحرية.

ابتعدت عنه، وغادرت إلى مساكن الطالبات؛ ساهمة فاقدة اي نوع من التركيز.

بكت دمًا، وحملت حقائبها وغادرت الجامعه في سنتها الثالثة؛ اختارت والدها والعائلة والتقاليد التي ينبذها والدها واقنعها بالتمسك بها.

أن ترفع صورة مهذب متواضع ومثقف نقطة ضعفه وقوته من الشيء نفسه من المكان المضطر.

الخنفشاري مرشح لإنتخابات مجلس الطلبة.

قالت: أثار فيّ الخنفشاري أسئلة كثيرة ومتزاحمة، وأبحث عن إجابات على طريقتي الخاصة، وضمن استقصاء له نكهته.. هذا القادم من قرية زيتا مركز الحركة الصوفية، وعن تأثيرات المكان الذي يعيش فية ويفتح عينيه على الصوفية، وحلقات الذكر والاحتفالات الدينية.

لاحقا تساءل بعد صداقته مع الكاتب عن وجه الشبه ما بين شيخ الطريقة المتصوف والصعلوك عروة بن الورد، وكيف كلاهما يحب الفقراء ويحنو عليهم.. كان شيخ الطريقة المثال الوحيد في حياته، جاءه الكاتب بنماذج أخرى منها ابن الورد.

بقيت هواجس كثيرة تتزاحم بأسماء نماذج إنسانية.

كم شعر أنه معجب بالممثلة الأمريكية الإنسانية والتي تبرعت بملايين كثيرة للفقراء أنجلينا جولي.

عادت به الصور إلى الماضي إلى أهل قريته؛ الفلاحين البسطاء والذين يعتاشون على الكفاف من الزراعة.. ينتظرون الإحتفالات الصوفية، ويقصون عن كرامات الشيخ الكثير، وكرمه هو الأهم.. وعندما يذبحون بقرة تنال العائلات منها قطعة لحم، أو رأس عجل، أو كرشا".

وكذلك يدفع بعض الفقراء آباءهم تجاه الزاوية؛ فهناك المتصوفون لا يبخسون عليهم بالطعام والحلوى.

لقد أحبّ لحاهم البيضاء الطويلة، وألبستهم البيضاء النظيفة والصافية، وكذلك حنانهم المفرط.

ولا يذكر أن أحدا نهره، مهما عمل وشاغب مع الأولاد الذين يلعبون حول المتصوفين، فكانوا يمطرونهم بالهدايا، وبالدعاء بالهداية.

لم يستطع تحمل كل صفاتهم، علما أنه واظب على الصلاة.

جذبته الجامعه الصاخبة، واستطاب طعم الخمر.. ثم يعلن توبته، التي لن تطول أكثر من أسبوع، ليعود ويعاقر الخمر ليلة كاملة، ثم يتوب صبيحة اليوم التالي.

شاهد الأرستقراط، وقرأ عنهم؛ عن عروة بن الورد والصعاليك الثوار، كيف يغيرون على قوافل الأغنياء وتجارتهم ويسلبونهم ويطعمون الفقراء، حفظ أشعار نزار قباني وغزل النساء.. لم يبق الخمر ضعفه الوحيد، فكانت النساء اختباره الثاني..

إنه يحب النساء ولكن ليس كل أنواع النساء، فقط ذوات الأصل الأرستقراطي، وكما يقولون بنات العز، واكتشف جاذبيته اليهن لأنه رجل مختلف.. لغته وفجاجته وزيه ولحيته الحمراء وشعره المنكوش

وصوته الأجش.

دعته إحداهن إلى مخدعها، وفي اليوم التالي أعلن توبته ولم يستطع أن يقاوم أكثر من أسبوع؛ فتحولت نهاية كل أسبوع، عنده، إلى خمر وامرأة أرستقراطية.

يضحك بصوت عالٍ يجلجل في الجامعه.

تساءل الكاتب، مطولا: ما الذي يعجبهن فيك يا معفن.

يضحك، ويقول: من غيظك أنت وغيرك.

الكاتب: أنت لست جميلا ولا أنيقا، وحتى مع منظرك المقبول ونحن أكثر منك هيبة ووقارا وأرتب شكلا، إلا أنك تفتن النساء ويتقربن منك. ولا تختار سوى نوع واحد منهن، وتدير ظهرك للأخريات اللواتي يعتقدن أنك ببعدك عنهن فقدن شيئا كثيرا.

يا لأطباع النساء الغريبة، وأتساءل عن هذا السر الذي تملكه أنت.

يضيف الكاتب: من يرى لحيته يحسبه رجل دين، أو وليا"، أو قديسا" يسمعه يبشر بالأخلاق الحميدة، ويصوم ويصلي. يتناقض مع نفسه وولعه بالنساء الارستقراط؛ يعجبه اسم العائلة..

أشبه مايبدو لي كمتشرد..

obeikandl.com

في أحد الأيام أجبرتُه على خلع معطفه الأبيض الوسخ عندما ترشح للإنتخابات، لبس أسوأ منها معطفا أخضر فضفاضا من سوق البالة المستعمل، لا يتسق مع اللباس والمظهر.

obeikandl.com

هل سيبتسم هؤلاء الناس من جديد؟

قال أبو خديجة: في ذلك اليوم الربيعي الهادئ وقفت على طريق جامعة القدس، فرأيت الطلبة يندفعون باتجاه الحافلات، ويتزاحمون؛ ولا يراعون الدور ولا النظام.. كعادتي تدخلت، ناصحا، ولا مجيب فصرخت: هل أنتم جامعيون، وصفوة المجتمع، ومستقبل البلد؟

ورغم صوتي الجهوري نظر إليّ بعضهم؛ لامباليا، وكأنه لم يسمع شيئا، وآخرون جربوا أن ينتظموا ولكن الفوضى فازت، وقهر النظام.

قررت أن لا أركب حافلة إلى البيت من ذلك المكان، ومضيت ماشيا إلى الأمام.. رأيت فتاة جميلة تبتعد عن الزحام الذي يقصدها بكل تأكيد، ويعصر الجميلات متدافعون مفتعلون.

أرى واحدا مبتسما، وكلهم يتدافعون نحو أية مركبة قادمة، يتقافزون إلى داخلها دون السماح للركاب بالنزول، ويعصرون من جديد كل راكب ذكرًا كان أم أنثى؛ عن قصد وغير قصد.

وقد صادفت أحدهم على باب حافلة وأنت تسير باتجاه الجامعة أو جلس إلى جانبك وسمعت حديثه، وهو يجلس بجانب شاب صغير، يمنحه الحنان بشكل بادٍ للعيان، وينكب على مساعدة آخرين في

الدراسة، فيحيطون به وهو يقدم لهم الحلوى ويبتسم ويلتقي كل يوم.

سألته: ما الذي يجعلك تعمل هكذا؟

قال: إنني أتصور أبنائي البعيدين عني الآن في سويسرا.

وكم أنا متألم؛ لأنني لم أتزوج عربية. لان الأسرة في بلادنا تغترف من حنانها ما يعينك على قسوة الشيخوخة والوحدة والجفاء.

يملك أفكارا غير عادية، رجل موسوعي يأسرك تماما كيفما حادثته.

أسرّ لي بأنه ينسل إلى القدس إلى فندق الأميركان كولوني، حيث الدبلوماسيون وبقايا أُسر الأرستقراط، يعزّز علاقاته..أضحى اليوم أكثر سعادة بعدما انتهى عصر الفلس.

رأت البروفسور العائد من امريكا، وسألته: هل سيبتسم الناس هؤلاء من جديد؟

نظر إليهم وضحك على طريقة الخنفشاري،

وجدهم منهمكين في المزاحمة والترقب والانتظار والقفز في أية مركبة قادمة.

قال: إذا بقينا على هذا الحال.... ولم يكمل. ثم تقدمنا أنا وأبو خديجة باتجاه مدخل الجامعة وقررنا الجلوس على مقعد حجري.

إنني أؤمن بأن الناس سيبتسمون مرة أخرى.

لماذا هم متجهمون تماما؟!

لن تصيبك الدهشة من هذه الوجوه الجدية جدًا.

وهل للعبوس طعم آخر؟

أضاف: اسمع يا بروفسور كم أود تطويع رغائبيتي المدججة، أبحث عن الإبتسامات الغائبة، وهل هي ضائعة في بلادنا المليئة بالنكبات؟!

أم مساحات الفرح تغيب، لتحضر مرة واحدة؟

كنت أدقق في تفاصيل العابرين.

وأَمر على وجوه الطلبة وأكمل النظر إلى أجساد النساء.

على طريقة صديقي الكاتب الساخر يطلق أسماء على النساء متصلة بالأسلحة والطائرات.

وهذه الفتاة اسمها "أف-16"؛ كانت تبدو جدية تماما وكأنها جزء من الإدارة الحازمة للجامعة أو ما يتصل بقسم الفيزياء والكيمياء..تأتي إليه ليصطحبها إلى كافيتيريا الجامعة، وينظر إلينا؛ ليكيدنا بأجمل فتاة.

يرسل كلمات وفكاهة، وهي تخفض وجهها بين يديها لتخفي ابتسامتها

obeikandl.com

وضحكتها.

مزيدا من الفكاهة وهي تضبط نفسها.

وكنا ننفجر ضاحكين عندما نلحق به إلى الكافيتيريا.

ولن ترضخ إلى إنسحاق الكبح المتقد.

والفتاة الثانية يسميها "الفرنسية ميراج"؛ وهي جميلة جدا.

وأخرى شقراء يطلق عليها "الشبح".. وهكذا

كنا قد سألناه: لماذا لا تسمي الجميلات بأسماء الطائرات الروسية؟

صمت مطولا، وقال: يخرب بيتكم، ألا يكفي ان فلانة صاروخ سام.

وفلانة صاروخ فضاء روسي.

والحسناء يقول عنها كاتيوشا.

ضحكنا جميعا..

وبعد عصر السلام المصطنع، أكيد اطلق أسماء المفاوضين على كل النساء اللواتي يكرههن.

obeikandl.com

الصدمة في دخول جامعة بيت لحم.

قالت بنت الأصول التي صاحبته أول عام جاء فيه إلى الجامعه، وعلمته كيف يتحول إلى وقح، وأطلقت عليه اسم راسبوتين.

سألها، بصوته الاجش: من راسبوتين؟! أجابته: إنه ريفي مثلك ولكنك أعظم منه.

بقي يسأل، حتى نصحته فتاة ناعمة، فقالت له: أنا لاأحبك، ولا أستلطفك؛ لأنك بسيط، اسمع أي سؤال لديك يوجد مكتبة هنا فيها الإجابات فاهم!

تمتم، لاعنًا، وغادر نحو المكتبة. حيث تعلم كيف يحصل على ما يريد من المعلومات.

وجد قصة "راسبوتين ونساء القياصرة".. استعارها وقرأها بنهم، فعرف أن الرجل نسائي بامتياز.

لاحظ تلك المرأة الناعمة ترقب دخوله إلى المكتبة.

يدخل من اجل معرفة تروتسكي والفوضويين والوجوديين.

أعجبه البوهيمي؛ ذلك الرجل الرث الملابس طويل شعر الرأس

oberkandi.com

والذقن والشارب. يحب أن يقول إن هناك بوهيميين جعلوا من البوهيمية إبداعا كونهم بوهيميين وسطروا فنا وقالوا شعرا ونثرا.

كتبت تلك الناعمة عنه ورقة أمسكها: "التيه والإنقياد والحيرة كلها ممزوجة بصدمة حضارية، وتضيف: هذا الرجل؛ وهو ريفي دفش، حديثه دائما خال من الكياسة؛ بل كالصخر غليظ الطبع، فلم تستطع الجامعة تهذيبه، وما زال يشبه راسبوتين، يشرب من الخمر الكثير، ويقص عن صدمته الحضارية في دخول جامعة بيت لحم.

يدرس الكيمياء في سنته الثالثة.. يحمل حقيبة مختلفة، تماما، لونها يشير إلى أنها من عصور قديمة، ويلوح بها ضاحكا.. غالبا يرتدي بنطالًا قطنيًا اخضر وقميصا" ازرقا" وحذاء رياضيا" من النوع الرخيص، وشعره أشعث غير مرتب، ولحيته كثيفة وغير حليقة ولونها أحمر إلى حد ما، أما عيناه فهما بنيتا اللون وتشعان ألقا خاصا".

قال: وقد اعترت الأرستقراطية الغيرة.

تلك الفتاة راودتني عن نفسها ولكني لم (...)؛ لأن مستواها الإجتماعي ليس مناسبا، إنها ليست الطبقة التي أفضل مشيرا إليها.. وضحك، فضربته بدلال وقالت: كاذب وعرنيط.

أما أبو خديجة، فعندما شاهده أول مرة كان يجلجل بضحكات، وترافقه فتاة حسناء ذات مظهر أرستقراطي؛ فتاة ذات شعر أسود فاحم أملس

ولامع يغطّي كتفيها.

عيناها ترسلان نظرات صاخبة، وحركاتها متقدة حيوية وشبابا.. تأسر المتأمل لحد الإتقاد على نار لفتاتها، وما زال يفقد قدرته عند امتداد تلك السهام من بين رموشها نحو لب قلبه وسمرتها الخفيفة، تغريه إلى حد الإغواء، ويستسلم لها وصولا إلى الإذعان.

أضاف أبو خديجة: أعرف لمَ ترافقه، رغم أنه جاف المعاملة وخشن المعشر.

لكنه ذكي بامتياز، لا أعرف كيف يسحر هؤلاء الأرستقراطيات اللواتي يحطن به، فهو يشتهر بفلسفته الغريبة في حديثه.هو معارض مستمر، ومحاور رافض معاكس الاتجاه دائم.

وعندما تقول له تلك الحسناء أن أصول الموضة لا تقبل اللون الأخضر مع الأزرق،

يجيبها: موضة من؟

تقول احداهن: الذوق العام، فيضحك ملء شدقيه،

ويقول: من حدّد الذوق العام، الكيمياء مسألة مختلفة، تماما، أية مقاييس؟! هل هو جاذبية نيوتن أم نسبية أينشتاين؟

اسمعي، أنا أرى أن الأخضر الهادىء والأزرق التائه متناسبان تماما.

وانظري كم أنا أنيق ولازاوردي الروح.. ويضحك مجددا.

تقول له: أنا لا يعجبني فيك سوى تمردك حتى على الألوان.

أسوأ حادثة يقصها ابو خديجة عن الشاعر: دخلت إلى مكتبه وقمت بتعنيفه، إنه مع الأشعار التي نبضت من قريحته المتعفنة، ما زال كما هو قبل ثلاثين عاما يحلم بفتاة في السابعة عشر من عمرها جميلة يريدها للزواج.

وما زال يطارد فتيات المدارس المراهقات، ذوات الأحلام المراهقة؛ يريد زوجته منهنّ وهنّ يهربن منه، وما زال ينادي بأن لا تسقط في أية جولة وجولته إلى المكتب..

دعاها لتناول قهوة معها، فاعتذرت بجفاء؛ فلو تلبي دعوات العابرين ستقضي عمرها في المقاهي، وعندما أخبرت الخنفشاري تمنى لو كان حاضرا؛ لأنه يستطيع قول حقيقة مرة لهذا الشاعر تحت عنوان:صراحة الخنفشاري التي لا تضاهى..

وجلست سعاد؛ تلك المرأة التي تختلف عن النساء، تندب حظها.. كيف كانت جميلة جدا وأضاعت شبابها هباء مع هذا الرجل، وأمنيتها أن تطلقه يوما ما؛ لترى مستقبلها،

وعلقت صديقة قائلة: هذه المرأة إذا ما رأت جنازة مهيبة تتمنّى أن تكون هي الميت المحمول على الأكتاف..

سعاد برس امرأة مختلفة؛ تتقد نشاطا وحيوية، مريضة الفضول؛ لمعرفة ما وراء الأبواب.

أصبحت مصدر الأخبار عن المدينة والحارات والاشاعات والثرثرة، وعندما تشعر بشح مصادر الأخبار تنقصها، تؤلف على هواها.. تتمتع بالنميمة، والأنتقاد، وزج ما لا يعجبها من الآخرين، ويتحول لاحقا سلوك الناس إلى أشياء لا تعجبها.. تحترف النميمة ونقل الأخبار.

إنها لم تكن عرسا ولا موسيقى صاخبة كما فعلت سعاد، حيث أحضرت ما يسمونه"الدي جيه"؛ وهي الموسيقى الصاخبة، تشعل مكبرات الصوت على مستوى الحي، فيستيقظ بأكمله حتى الواحدة ليلا، وليرقص كل مريض وقلق مع الموسيقى الصادحة حتى الصمم.

وهناك الصوت أعلى من الفرحة الغامرة ، يختار الأغاني الثورية، أو يغني الفلوجة في العراق.

يبدوا أن الفلوجة في فلسطين، حيث صمد عبد الناصر وفي العراق حيث مواجهة الأمريكان، واحدة في التاريخ وان أية تسمية لأي مدينة بهذا الإسم يحكم عليها بالمواجهة، ولكن مع الموسيقى نرقص للفلوجة؛ لصمودها ولعدد ضحاياها، وينزل في الساحة أكبر مجموعة

من الراقصين؛ يحتفلون للفلوجة، ويرقصون أنتقاما من أمريكا..

و الدبكة هناك، تراقص أرجل الدابكين بخفة مع الناي والطبلة، بخفة شديدة وحركات متوازنة.. إنه التراث وطقوسه في حركة الأرجل مع الناي واليرغول. وبعد ذلك الرقص وهز الخصر والبطن كغازية أو جنكية كما يسميها أهل غزة، يتمايل الجميع احتفالا حتى المنتصف من الليل أو ما بعده، تستعر الموسيقى مع المطرب شريف الدرزي الذي يدمج العربي بالعبرية وهنا جنون الرقص، لهذا المطرب المتأسرل عشاق وجنون المراهقين الذين يتمايلون مع الموسيقى العبرية وصوته.

صرخ الخنفشاري: أول ما يوقظ ابن خلدون، الذي رسم العلاقة ما بين القاهر والمقهور قبل 600 عام، وتبعه الكثير وصولا إلى فرانتز فانون الذي قاتل مع الثورة الجزائرية وعلاقة المضطهد بالمضطهد أو الاقتداء بالخصم.. نرقص مع موسيقاه ونموت بقنابله وقصف طائراته ونجن عندما يريد؛ لأنه برمج ردة فعلنا.. إذن، نحن مقبلون على الألفية الثالثة؛ بالوقوع الموهوم في الفخ، على المستقبل.

الباشا الأرستقراطي في الرابش

يعلق أبو خديجة ضاحكا:عندما تصل إلى سوق الأثاث القديم والمستعمل ، يحب الكثير من البشر الأشياء الحديثة، وآخرون يحبون القديمة والأنتيكة، كما يقولون:أعبر ما بين الفترة والأخرى بحثا عن تحفة جميلة، ونظر نحو براويز رائعة يبيعها تجار المستعمل وهم من قرية "بيت عوا" نسبة إلى القرية التي هم منها، يتاجرون بالملابس والأثاث القديم، غالبيتهم ليسوا متعلمين، يكتفون بالمراحل الابتدائية.

رآه يمزق صورة داخل البرواز.. لملم الصورة وإذا هي لباشا تركي يرتدي لباس الباشاوات التقليدي، ويضع طربوشا أنيقا وعليه مظاهر الأناقة البالغة والباشاوية.

سأل التاجر "العوّي": من أين لك هذه الصور؟

فقال: إنها للشامي؛ وهو رجل ثري من مدينة بيت لحم أعطاني مفتاح بيت جده، وقال لي: نظف النفايات القديمة من البيت وأحضرتها، وها أنا أبيعها.

اشترى أحدهم هذا البرواز مني ودفع وطلب أن أزيل الصور، وقد مزقتها كما ترى ورميتها في النفايات.

قال أبو خديجة: إنهم أجداد هذا الثري.

obeikandi.com

وسأل كبار السن، لاحقا، فأخبروه ان جد الشامي كان باشا تركي وذا وقار وهيبة، يجلس الصقر على شاربيه، كما في المثل.

وكان صائدو التحف قد اشتروا الأواني الخزفية الثمينة بأبخس الأثمان، ومزقوا صور الباشا. ولم يؤلمني الباشا ولا صوره بل الوفاء من حفيده الذي أورثه كل العز الذي هو فيه..

لم يستطع أبو خديجة الا أن يحدث الخنفشاري عن تلك الحادثة، حيث علق الخنفشاري: أنا أحب كسر القوالب كلها بلا تمييز ما بين قالب وآخر، والباشا قالب جميل كسره الرابش.

عندما جاء نبيل إلى أبو خديجة، أجلسه على الخزنة كي تمتلىء استه من خزائن الاثرياء.

نظر نبيل إلى إمراة ترفع رأسها إلى الأعلى شموخا، فقال: اسمع يا أبا خديجة، عندما جئت مدينتكم سحرتني نساءها، ولكني لاحظت أنهن يحنين ظهورهن، مكث هذا التساؤل لدي أكثر من ربع قرن.

عندما زرت قريتي قبل أسبوع رأيت السرنوة؛ وهي إمرأة شهيرة في قريتي، يتغزل كبار السن من الرجال بجمالها، كانت تسير تحمل على رأسها بقجة كبيرة.

ونقل عنها قولها: النساء الكبيرات منتصبات ورقابهّن في العُلا، وكأنهن متبخترات؛ لأنهن كن يحملن فوق رؤوسهن أحمالا ثقيلة، وهذا يتطلب أنتصابا في العنق، مما جعل أعناقهن شامخة بعكس كثير من النساء

الحاليات ينحنين بأعناقهن المدقوقة أمام أجهزة الكمبيوتر.

كان أبو رفعت الفكاهي يسير خلف السرنوة وحملها ثقيل من على رأسها، وتكاد تعدل الحمل، حذاؤها البلاستيكي يصدر صوتا مع تعرق قدميها، وتخشى أن يكون سمع صوت فقفقة الحذاء ويعتقد عكس ذلك، قالت "رجه"؛ وهي عبارة عن كلمة ترددها النساء أمثال كلمات كثيرة مثل يا دلي وعزى ووو.

واصل أبو رفعت الفكاهي سيره خلفها، وحدث أنها كانت كلما جربت تزبيط الحمل خرج صوت من حذائها.

وأخيرا التفتت إلى الخلف وجدت أبا رفعت وراءها.

قالت: يا فضيحتي هذا صوت حذائي البلاستيكي (وكان ابو رفعت سيتهمها بغير ذلك) منذ متى وأنت تسير خلفي؟

قال، ضاحكا: منذ أول رجة، وحتى الآن عاشِر رجة.

قال: وهل تعتبرين الضراط فضيحة.. ثم وضحك، وضرط، ومشى يحدث كل أهل القرية.

رغم أنها كانت تحمل أثقل الأحمال على رأسها، الذي بقي مرفوعا ومشيتها تبخترا قلّ أن ترى مثله الآن.

الخنفشاري وبنت الأكابر.

قال لأبي خديجة: إنها فرصتك أنت أن تكون مع بنت الأكابر هذه بإمتياز.

قالت بنت المحدث النعمة: إنها مخطوبة لابن عمها الثري، وهي قادمة إلى الجامعة كنوع من الشكل الإجتماعي كي تحصل على المستوى الجامعي، وليس من أجل الشهادة الجامعية البكالوريوس وهي ليست بحاجة للوظيفة العمومية.

كان يمر من أمامه نبيل، أجرى مقارنة هشّة في مخيلته، وقال لها: نبيل، أيضا، يبحث عن الشكل الإجتماعي وانفلت ضاحكا ومقهقها.

سألته عن سبب ضحكه، فقال: الفرصة أمامك ما دمت قادمة إلى الجامعة من أجل ذلك، ولديك كثير من الوقت وأنت لا تريدين تفوقا" بل نجاحا" ومرورا" عابرا" في الدرجات التي لا تحتاجينها.

علما أنني أحتاجها؛ كي تسهل أمامي بعض الفرص الرثة للوظيفة العمومية التي أزدريها تماما مثل المجتمعات الفارغة.

استفسرت عن أية مجتمعات يقصد.

obeikandl.com

قال لها: مجتمع محدثي النعمة من الوكلاء، وإنني لا أحب سوى نساءهم، اللواتي لا يجدن التزين والماكياج (ويلبخن) وجوههن بطلاء غير متناسق.

يغرقونهن بالثراء ويتحولن إلى سوق الإستهلاك.

وأضاف: أنتِ الآن أمامك أربع سنوات للحرية وللعبث الذي لا تتقنه فتيات الجامعة الأخريات.

أشد ما لفت أنتباهها مرور الطلبة الدائم وطرح التحية عليه، وإرسال الفتيات ابتسامات متنوعة له، ويوزّع مواعيده كما يوزع الابتسامات ويقول لفتاة جميلة أراك بعد ساعة، وأخرى يعطيها نفس الموعد وطالب آخر نفس الموعد وفي نفس المكان؛ كافيتيريا الطلبة.

قبل ان تستفسر عن ذلك، قال: إنك تحتاجين سواي، أنا المختلف عن بقية الطلبة، وما هؤلاء إلا مريدون ومحبون.

حاولت الفتاة الاستفسارأكثر من أبي خديجة.

أجابها: لن تكتشفي هذا الرجل في جلسة واحدة، بل أمامك أربع سنوات من الممكن أن تكتشفي جزءًا منه.

ما زالت تتذكر حديثة مع محدثة النعمة وكيف احتلها احتلالا.

هذا في أول اللقاءات ما جال في ذاكرتها.

وكلمات أبو خديجة ترن في مسامعها: القليل لا يجرؤون على مجاراته، يتفاخر أنه يصلي الجمعة، وفي نهاية الأسبوع يسكر ويتحدث عن سكره وعربدته ذلك اليوم. ثم يستحم ويصلى مجددا.

لا يكسر زهده إلا زجاجة خمر فاخرة وامرأة أرستقراطية.

لا يذكر أسماء، وهو محاط بفتيات من الجامعة ومن الخارج، لا يؤمن بأية علاقة مع غير الرقيقات والناعمات.ويقارن نعومتهن مع نساء قريته.

قائلا: إن الأفعى تدخل في شق قدم تلك النسوة، ولكنه معجب تماما برؤوسهن المرفوعة.

أما هنا في الجامعة فيحنين قليلا، ولا يعجبه ذلك.

وإنه يختار النساء رافعات الصدور والرؤوس.

هؤلاء نتاج غرورهن. أما في قريته، لأنهنَّ يحملن على رؤوسهن الماء والخضار وأشياء كثيرة يبقين رافعات الرؤوس.

كم أغوته فتاة تلفظ حرف الراء على أنه غين، ويقول عنها "الفرنسية".. يصدُّها، ويبتعد عنها، فتتبعه.

obeikandl.com

وهناك إشاعات عن لقاءات ساخنة كانت تدور، ولا أحد يعلم بها.

أنه بئر الاسرار، يكره ذكر اسماء عشيقاته، يحفظ سرهن ويشجع غيرهن على القدوم إلى عالمه المنفلت لحظيا كل يوم جمعة؛ بعد الصلاة.

يكره الفضوليين، كما يقول، ومتشدقي الكلام.

كل ذلك ما قبل حقبة فتاته .

لا يجرؤ على النظر إلى أية واحدة عندما تكون بجانبه فتاته الشرسة، ترمقه بعينيها وبنظرة حادة، يستكين لها تماما، وما بعد عصرها لا يحكي سوى عن ماضي.

obeikandl.com

عايشة الوداقة.

انفلت على ظهره ضاحكا، خلال حديثه عن عايشة الوداقة، موضحا سبب التسمية؛ إنه لقبٌ سامٍ، على حد تعبيره: لأنها تتودّق الكلام؛ أي تلوكه لوكا وتتشدق تشدقا، وهذه أفضل صفات المحدث، وإنها تشبه الوعاظ إلى حد كبير، ولكنها تختلف عنهم إنها أكثر فائدة أحيانا كثيرة؛ لأن كثيرا منهم يتحدثون ولا مستمع لهم. الناس تحدق في عيونهم وعقولهم في مكان آخر.

اما الوداقة، فأخبارها تتسم بالطرافة، وقصتها مع جارتها رائعة؛ حيث كانت تتحدثان، وتحركت الجارة تعدل جلستها، وسمعته الوداقه.. خافت جارتها أن تفضحها الوداقة، والتي يحب الناس التحرش بها لمعرفة أخبارها، وهي تبث أحاديثها بدون وجل أو خجل.

وطلبت الجارة منها أن تستر عليها، فقالت الوداقة: حاضر، ولكن أريد أن تطعميني مطبق؛ وهو نوع من الحلوى تتقنه تلك الجارة.

وَعدتها في اليوم التالي أن تعدّ لها حلوى المطبق.

حضرت الوداقه في اليوم التالي، بعدما بثت أن لديها اخبار هامة.

تناولت الحلوى، وشكرت.. خرجت إلى الشارع، وكانت الجارات

ينتظرن خروجها؛ لمعرفة المفاجأة فأخبرتهن إنها أكلت حلوى سر الجارة...ضحك الجميع.

ويضيف الخنفشاري: العفوية؟ سؤال كبير ومتفلسف.

عندما يجتاحك شعور اللاوعي فأنت في منتهى العفوية، وبذلك تحتاج للخروج من ذلك بتنظيم أفكارك وإخضاعها لقوانين ترتئيها أنت وتحددها لتصل إلى الوعي هذا ما اجتاحه كم أفكار وتذكر.

كيف لو صادفتك الوداقة؛ أي ناقلة الحديث ومفشية الأسرار؛ لقالت عنك أشياء كثيرة تخفيها أو تؤلفها هي.

قرر الخنفشاري أن يحكي لها قصة القرد الموجود في حديقة الحيوان:

حيث يكثر الزوار من إلقاء الفستق الحلبي غير المقشر إليه، فأغواه الفستق؛ واندفع يبلعه بدون تقشير. وفي اليوم التالي حاول أن يقضي حاجته الا أنه أصيب بالإمساك..

واجه القرد ألما شديدا ولم ينجح فبدأ يتلوى..

في اليوم الثالث تدخل الطبيب البيطري وقذفه بالبندقية بابرة منوم، ومن ثم قاموا بعمل حقنة شرجية له، وعندما استيقظ كان قد تعلم

obeikandl.com

الدرس.. لم يتنازل عن البندق، ولكنه كان يحاول إدخالها في إسته ليعرف إن كانت ستخرج مع البراز أم لا.وهذا ما يحتاجه كثير من الساسة، كما يقهقه الخنفشاري.

أن يقيسوا ما يمكن أن يخرجوه من إستهم قبل المغامرة السياسية؟

obeikandl.com

امرأة بوهيمية من الشارع.

لم يلتقط الخنفشاري سوى أحلامه، رغم المبادئ لها والخطوط الحمراء، ولكنه تنهّد عندما عاد إلى قريته "زيتا"، متذكرا سيده الشيخ الصوفي على طريقة الخلوتية اللائقة. تخيّل المتصوف امامه، وكأنه يحدثه ويسأله ويناجيه: عباراتك ومناجاتك.. وصلت حد الهيمان في أورادك.

شدني من جديد إلى روعتها المتألقة ومعانيها المكتنزة.

مني الأمنيات الجميلة.

شدوا إزاري، لا تكفيني كل الدنيا إنها مغرية جدا، كيف أرميها وأكون زاهدا؟

النساء لا أشبع منهن وإن أطلت النظر.

كيف أشفى من عشق النساء؟!

وجد أنه تائه وابتعد عن النساء العاديات لكنه لم يكن يفكر في الناعمات.

لقد أضعفن قوة زهده.

وكم أحب أبا العتاهية؛ الذي زهد في الثمانين من عمره ولكن المليحة

obeikandl.com

أخرجته من تعبده وتنسكه

ليتغزل بها ويعود.

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبد

لا خمار هنا يا أبا العتاهية، بل تفاصيل التفاصيل، كيف لي أن أعود مثلك؟

كان يلج رهبنة، ولكن ضجيج موجات انجذاب أنثوي بعدما يكون منجذبا تصوفا.

أوصل نفسه إلى علاقة نظيفة، ومن ثم تطاول عليها وأنضج فيها شهوته المنقطعة والراكدة، والتي لا يستفزها سوى النساء البضات الراقيات.

لا يعرف من أين أتاه هذا!

هل كانت أمه التي تكثر الحديث عن عائلات الراقية "كبارات"؟

ويأتون في سيارات إلى القرية ونساءهم لم تلبس مثل الفلاحات، بل ملابس راقية.

لم تكن تعرف أمه إنهم الطبقة الراقية؛ الذين ولدوا يأكلون بملاعق ذهبية..

قرر أن يجتاح هذه الطبقة.. عاكسها، فانجذبن إليه..

وكما صعقته سيرين الناعمة جدا والأنيقة إلى حد الإدهاش الكبير، كانت ترشفها أعين الطلبة..

سألته مرة، بلباقته طلابية: ماذا يعني لقبك "الخنفشاري"؟ نظر إليها نظرة تعالٍ، وأدار وجهه.. طاردته، كما ظله.. طوال عامين وهو يمسك بها، حد الإرتهان، وتسأله كل مرة وتتشوق أنتظارا لإجابته..
قال لها: أنا أعطيتك رموزي وأحجيتي..
سيدة الأسرار، فكيها وأنا لك.
سأله اصدقاؤه: هل حلت رموزك؟
قهقه ، وقال: اسألوها.
في رحلته إلى البحر يصف الفتيات الناعمات بكيت كات.

سألوه: من أين التسمية؟

أجاب: اسم لنوع شوكلاته لذيذ جدا. وهن جميلات مثل الشوكولاتة حسب تعابيره..

قهقه مجددا بصوته الأجش وضحكته المجلجلة، وأضاف أنه عندما قرّر أن يجرّب طعام كل الفتيات المشاركات في رحلة النادي الإجتماعي لمجلس الطلبة، كان سكرتير النادي يحب اصطحابه مجانا، خاصة وأنه يعطي الرحلة نكهة غير عادية.

obeikandl.com

تكلم بصوته الهرج، قائلا: أنت لا تجيدين الطبخ!

فأجابته سيرين الناعمة: لا بل أجيد.
وماذا تجيدين؟
قالت: البطاطا المقلية والمحمرة "الشيبس".
سألها: مقرمشة تماما؟

وفي الرحلة تناول منها الوعاء المليء بطاطا الشيبس، وبدأ يوزع إلى أن بقيت آخر حفنة، وهو يتاجهلها.

هجمت عليه قائلة: لقد احترقت يداي والزيت يرشقني وأنا أقلي، أريد أن أتذوق.

أبعد الوعاء عنها، فعضته في يديه، أفلت البطاطا وأنقلب على ظهره.. أندفع يقهقه، وضحك الجميع.

سألتها إحدى الغيورات: ما الذي يعجبك في هذا المتشرد.

أجابتها، بخشونة: أنت لا تعرفين قيمته. إنه غير عادي؛ انظري يختلف عنهم جميعا..

راقبته يتحدث إلى احدى الفتيات، وسمعته يقول: من سيوصلك إلى منصب وظيفي؟ اسم العائلة أو مكانتها؟ أم نفوذها؟ وضحك.

obeikandl.com

أدار ظهره، وأمسك يد سيرين قائلا: المستقيمون أصحاب الضمير والقيم والمبادئ الذين أوصلهم تفوقهم إلى مناصب عالية، لم يتمكنوا من الاندماج في العمل السياسي ذي الطرق الملتوية.

التفتت اليه، ولم يعجبها خوضه في السياسة..

قال: المرأة هي المحرّك الرئيسي في حياتي، التي تتناول حياة خمس نساء يتخاصمن ويتقاسمن عالماً من الأحلام والأوهام؛ بحثا عني.. أنا أهم الخطاب.

أشاحت وجهها عنه، فقال: بالطبع لن تفهمي ما أقول.

أجابته، وهي تعطيه ظهرها: بلا فهمت، ولا يهمني.

قَدم إليه نبيل والكاتب وأبو خديجة؛ فضحك..

نظروا إليها تدير ظهرها وتمشي،

قال ابو خديجة، ضاحكا موجها حديثه اليهم: (في ناس حلقت لهم فتاه ملط).

انفلتوا ضاحكين.

قال الخنفشاري، متضايقا: لا ستعلمون تأويلاتها القادمة، ثم اصطنع ضحكة، وأضاف: تأتي، وأتركها في العراء مشحونة بأبعاد رمزية كثيفة الحلزونية وأعرفها بامتيازات طبقتها.

تتغير الأزمنة كل له أحلامه بحثا عن لحظة الحدث العظيم.

يجتمعون في المستشفى حول سرير الفنان المريض.

يقص أبو خديجة أحاديث الخنفشاري.. يضحكون وأخرون يستغربون؟

وخاصة أحلامه، حيث يفلسف الخنفشاري: لن تمل الأنتظار، أم أنه طريق لا نهاية له، يسلكه الحالمون من كل أطيافهم وبتنوعاتها، وما زالوا يلتهمون طريقة ابتكارهم للوحدة القاتلة.

حينما يهزعون للنوم، يتكورون حول هذه الأحلام، منها ما هو رث ومنها أحلام كبرى، وكل للتوقعات المتغيرة، كما الطقس؛ ما بين اليأس والإحباط، وما بين الجزر والمد وما تحت خطوطها الحمراء وأنتقالها إلى التداعي على عتبة الأنتظار.

كل ينتظر من هؤلاء حظا أوفرصة؛ كما بذار الارض.. ينتبهون من الأنتظار الفج، وسلاح الصبر الذي كرهوه؛ كما كل التداعيات.

قال أبو خديجة: قصصت حكاية الرجل والكلب للخنفشاري؛ وهي عن رجل زوجته حامل.. أمسك كلبا..أحضره أمام زوجته، وأراد ان يذبحه؛ ليرعبها بعدما فقد كل قدرة على ضبط شكيمتها وإيقاعاتها

obeikandl.com

المتسلطة عليه، وسأل: ما الحل؟

قالوا له: إقطع رأس القطة.

وقال: ينفع كلب ، يوجد لجيراننا كلب.

اندفع، فأحضر الكلب، وقال لها: انظري أنا سأذبح الكلب أمامك واعرفي أنني رجل وصرخ.

رأته يمسك سكينا ويضعها على رأس الكلب وأغمي عليها، ولكن السكين كانت غير حادة لم تؤذِ الكلب..

أخذوها إلى المستشفى فأسقطت حملها؛ حيث كانت على وشك الإنجاب.

أمسك الجيران به وبدأوا يصفعونه.

وأحدهم يقول: يا ابن الكلب كيف تريد ذبح الكلب.

سمع الخنفشاري القصة فقهقه عاليا، وقال أنه لن يتغلب على قهر امرأته له لأنه قهر نفسه؛ فهي أجهضت وصفعوه على قفاه، وهل يدرك أن النصيحة كارثة.

وتساءل: أهي خطيئة؟ ومتى تضحي مقدسة عندما ينخدع أحمق بالنصيحة، وتتحول من فكاهة إلى مأساة ذبح كلب إلى إجهاض حامل.

obeikandi.com

شدد الخنفشاري:هذه حالتنا السياسية.

كان يكره النصائح، ويقول: هل يسجل تاريخ الخسارة على قارعة الأنتظار؟

انقضت سنوات عدة، وما زال يبحث عن سحرها القديم.

إمرأة كانت من الزمن الذي أهدره ما بين الكيمياء ونزواته.

كم رفض عرض الزواج، ليتحول إلى زوج نصف خنفشاري تصرف عليه.

تذكّر كيف لم يطق التدريس والتعليم بمهنة المعلمين؛ الذين شتمهم ووصفهم بأقذع الصفات لأنهم يتحملون قذارة الطلاب المراهقين.

ترك التدريس، وذهب إلى فرن ليعمل خبازا.

يراقب كيمياء تفاعل الخميرة مع الطحين والعجين.

تزوج امرأة بسيطة؛ لا تفي بنزواته ولا خمره ولا جنون شبقه الصوفي.

قال أبو خديجة: ما زال يضحك مجلجلا بصوته، وعندما نلتقي ينفث حسرته على الزمن الجميل، ويسألنني عن المعجبات.

ويجيب أبو خديجة: لا أعرف، لأنني أريد أن يبقين حبهن للخنفشاري

القديم الرائع.

منذ تلك الحادثة أسمح لنفسي أن أبقي الذكريات، ولا أهشمها..

من يسألني عن الخنفشاري أجيب بما يبقي صورته الرائعة. واللواتي أحببنه من أجلها، علما بأنه لم يتغير. ولكن إعطاء التفاصيل يفسد فضولهن.. وأُخبره، فيضحك ملء شدقيه، كعادته، ويشتم شتيمة غير قاذعة.

ألا يحق لي أن أبقيه في قناعه السابق.

obeikandl.com

السوق

جاء البروفسور الي الكاتب الذي اصطحبه إلى السوق..

كان أبو خديجة يمارس نفس طقوسه؛ الجلوس والنساء يوشوشنه، ويبيع الأنتيكة القديمة، ووصفات الأعشاب،

ونصائح مجانية..ويشتم أحدهم، قائلا: يا ابن الكلب، أناأعطيتك تلفونها عشان ترتب زواج بالحلال، ولكمه في بطنه فآلمه..

وهدده أبو خديجة.. اعتذر الشاب وذهب ممغوصا.

جلس ابو خديجة مرحبا بالكاتب والبروفسور..

قال البروفسور: التقيت شاعرًا، كنت قد نصحته أن يجدد قصائده، وسال: كيف

قلت له أن يذهب إلى أبو خديجة.

ضحك البروفسور: وكيف يحمل قائمة للنساء اللواتي يبحثن عن عريس مناسب، ومن ثم وصفة الأربع وأربعين عشبة وإنها مفيدة جنسيا.

دفع ابو خديجة عينة اليه، بعدما الحّ أنه يريد كمية اكبر. وهنا؛ غمز أبو

obeikandl.com

خديجة الكاتب، طالبا له السماح،

أومأ رأسه بالموافقة.

قال للبروفسور: ان تكلفتها عالية؛ مئة دينار نصف الأوقية الواحدة ولكن مفعولها تمام مئة بالمائة،

دفع وهو مسرور.

وأضاف: إنها تساوي سعر بضع حبات من الفياغرا، غير المأمونة والتي قد تسبب تجلطات خطيرة.

أخبرهم أبو خديجة أن الخنفشاري قادم قريبا، وكيف أخبر الأرستقراطية التي تمر ما بين الفينة والأخرى على السوق.

وأضاف: إنه يعرف السبب، ولكنه يبيعها أعشاب وأنتيكة وتحف قديمة وهي كريمة في الدفع..

وفي أحد الأيام جاءه متسول ليبعه الأنتيكة التي باعها إياها، وعرف أن قدومها فقط لمعرفة الأخبار عن الخنفشاري.

قال: اغتظت منها كثيرا، وقررت أن أخبرها شيئا"، وضحك..

قال: وزنتها في رأسي، أنا الخسران ومعظم قصص الخنفشاري وأحواله ابتدعها أنا كي تشتري مني، وعندما حضرت كنت متأكدا" أن

obeikandl.com

الخنفشاري قادم وعائد للوطن، أخبرتها أن لدي خبر مجاني..

دون أن تشتري.

وقال: حاولت شراء أي شيء وصممتُ على رفض أي مبلغ.. أمسكت بساعة قديمة، وقالت: امسح هذه الساعة جيدا.

قال: قدمتها هدية لها فرفضت، ومسحتها.

قالت: كم تريد ثمنا لها؟ قلت: لا أريد.

قالت: يا أهبل؛ هذه ساعة ذهب ثمينة جدا.

ورفضت أخذ ثمنها، فأعادتها اليّ، قالت: إياك ان تبعها بأقل من الف دينار.

قلت لها: ان الخنفشاري قادم.

ضحكت، قائلة:إنك تكذب عليّ دائما، ولكني أحب أن أتابع أخباره حتى الكاذبة.

قال: لحقتها، ووضعت يدي على القرآن،

فأمسكت يدي، وقالت: جد؟

قلت: هذه المرة، نعم.

obeikandl.com

قالت: وهذه المرة الساعة ذهب عيار 21، إياك أن تفرط بها، أنا أعلم أنك تقبل من غيري مبلغ 5 دنانير وتبيعني إياها بعشرة دنانير، وضحكت..

أخبرها أبو خديجة أن الخنفشاري يتشوق جدا إليها، ولا يعرف إن تغيرت أم لا.

أجابته: وهل بقي من الخنفشاري شيء؟

لقد قال لي أن الماضي هو التفسير والمستقبل وهم والحاضر ماذا؟

أخبره أن يأتي بأجوبة لا تتعارض مع ما قال؟

اسأله: هل ما زال يبشر بالثورة، وعائلة الغرير وعروة ابن الورد وشيخ الطريقة الصوفية؟

أما زال يسكنه المخيم!

وحدثته كيف أخذها إلى المخيم.

إلى مخيم الدهيشة، حيث تجلس أم أحمد..

هناك في المخيم عالم آخر؛جرأة

نقمة

بؤس

obeikandi.com

فقر

اكتظاظ..

قال لها ابو خليل: نحن كسرنا قواعد علم الاجتماع.

تكثر في المناطق المشابهة للمخيم الجريمة..

هنا تتكاثر الأحلام الثورية..

قال لها: هل المخيم لعنة نقمة تشرد لجوء فقدان تكسر؟

obeikandl.com

الإفراج

عندما أطلق سراح الخنفشاري من السجن كانت الأرستقراطية في استقباله.. احتفلت به؛ قبّلته، من أخمص قدميه حتى عنقه.

رفضت أن تعطيه فمها، أو صدرها أو جسدها.

قال لها: إن السجن أقوى تجربة معاناة، تعيد خلق الرجل من جديد، وأنا لا يجوز أن أتصف بغير الوفاء..

لذلك؛ سأتزوجك..

لم تجبه..

أخبرها أن السجن والقراءة غيرت قناعاته تجاه المرأة..

حكى لها عن الثائر نجيب ألبرت ابو شريف؛ حامل الجنسية الأمريكية وأخيه القائد في المارينز الذي جاء لزيارته في السجن وما فعله السجانون من ترحيب بالأمريكي واهانة الفلسطيني، وهما أخوان.

أنا مع صوت عطا الله حنا صوت مجلجل، علما أنه وحيد، ولكنه مهم في كل المؤتمرات الدينية في كل اللقاءات الوطنية.

obeikandl.com

كانت تستمع وتتأمل وجهه بين يديها.

وقالت: كم أعشق بحثه.. تناقضه.. جنون ارتيابه.. تيهه المؤكد.. حلمه المركب.. تعقيداته.. بساطته.. سذاجته..

أحيانا كثيرة، كنت اخدعه، عمدا، واختبر ذكاءه.

أضحيت أتجاوله مرة ومرة، عندما أنتصر أضمه أغرقه قبل أن أعتذر.

شعرت أن الحنفشاري تغير تماما.

هناك أسئلة يطرحها حول طهارة الثورة..

كان يؤمن بقداسة الثوار.. أضحى أكثر تشككا وأكثر واقعية.

بدأ يقول: الثوار الكتبة، لم يعجبه ثراء الكثيرين منهم، واعتبر أنهم لو عملوا في شركات البترول، لما حازوا هذه الثروة.

لم يتراجع عن الإشاده بالأبطال منهم.

قالت: كم جلس يقرأ لي ما كتبوه عن أبو حسن سلامة "الأمير الأحمر".

وما كتبه الموساد والمخابرات الإسرائيلية عن مطاردتهم له.. كان زوج الفاتنه جورجينا رزق ملكة جمال العالم ولبنان.

أستفزته الإرستقراطية: وهل أنت أنيق مثله؟

obeikandl.com

ضحك ملء شدقيه، وسألها: من تفضلين؟

قالت له:أنت أيها الرعاع المتشرد، وضمته إلى أقصى قلبها.

قال:إنهم يحاولون تشويهه، وأنا الوحيد في هذا العالم أقول إنه تزوج بنت الأرستقراط الحالمة الجميلة؛ لأنه البطل..

اسمعي، إن الثورة تعطي هوية اخرى مختلفة، وكما كان الإنسان يتنزع هوية أخرى فيها البطولة والشجاعة والتضحية، لا يستطيع الكثير من البشر شراءها بأموالهم..

لا تشترى بالبطولة ولكن ممكن أن تزور.

أضاف: أتعرفين ما الفرق بين الشجاع والجبان؟

أجاب: كلاهما يخاف، الجبان خوفه يمنعه من الإقدام وأما الشجاع خوفه لا يمنعه.

قال: الفدائي.. هل تعلمين من هو الفدائي؟

قالت: لا، كنت أعتبره اسطورة.

قال لها: بل خرافة، نحن في الشرق نمجد الخرافة، بعد حرب 1967 وهزيمة العرب الساحقة كانوا بحاجة إلى بطولة.

obeikandi.com

أضاف: أتعلمين، هزيمتهم المرة واسبابها: الكذب والتخلف والجهل..
لم يراجعو اسبابها؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى حدث ما أسطوري.

طلع ياسر عرفات، فقلب موازين الهزيمة صمود أمام العدو في الكرامة.

حولوها إلى نصر مؤزر، يستعيد العربي خرافته من جديد.

ضمته من جديد، وقالت له: إذن أنت لي مجرد خرافة؟!

أم ماذا؟ قبلته على جبينه ونهضت.

obeikandl.com

إختفاء الأرستقراطية.

ذهب إلى والدها وخطبها منه.

كان والدها جلفا، وقال: نحن لا نعطي فلاحين بناتنا، فاستفزه.

فقال له:إنها تحبني، وأنا احبها؛ سأتزوجها غصبا عنك، واذهب إلى الجحيم.

قال له ابوها:أناأعلم أنك تحتمي بالثوار، ولكن لا تخف لن أستخدم معك قوتي التي تسحقك..

ولكن، اذهب إليها هي سترفضك.

وأضاف متبجحا: أتعلم لماذا؟ لأن هناك تربية لدينا: اعراف وتقاليد صارمة، لا نتخلى عنها، نتخلى عن قلوبنا نطعمها للكلاب، وهي لن تخون عائلتها.

طرده، مضيفا: حاول كل جهدك.

ولكن نحن نعلم، إنها لن توافق.. اذهب..أتحداك.

وإن وافقت، ساعطيها نصف مليون دينار هدية لتصرف عليك أيها الشحاذ.

وشعر أنه في مأزق.

obeikandi.com

قرر المغامرة، ولكنه تعلم الأناة والصبر.

ذهب اليها وأخبرها أن الزمن يقرر ما بيننا.

وافقته وقالت أنا سأبقى مخلصة لك، هل ستفعل ذلك أنت؟

نهاية العام تخرجت واختفت، سافرت دون كلمة وداع واحدة.

أنتابه ما يشبه الجنون..

صلى لله مطولا ذهب مع الصوفيين؛ عله يشفى.

شرب الخمر؛ عله ينسى.

تخرج بمرتبة شرف في الكيمياء، قرر السفر.

وقال: العلم لا يفيد في ارتقاء المناصب بل الواسطة، التاريخ العائلي القبلي الشخصي الارستقراطي

سأطعم الناس الخبز فقط.

ولن أعلمهم كيمياء لأنهم فقط بحاجة إلى الخبز.

كان الخنفشاري يستمع للكاتب؛ ساهم التفكير، قال له: أتعلم انك ستقابلها بعد عودتك واختفائك عشرين عاما.

obeikandi.com

أتعلم الحقيقة؟ إن جرس هاتفي دق وأخبرتني السكرتيرة أن عبير تريد محادثتك.

قلت: من عبير؟ قالت: عبير محمد.

وقلت لها: نصف الأسماء عندنا محمد لقد زدتني تيها.

بدأت تخبرني عن نفسها، وعرفتها أنها فتاة تشبه صاحبتك، رفض أبوها تزويجها لشاب فلاح وهو صديقي، وأخبرتني أنها قادمة في اليوم التالي إلى مكتبي، فرفعت التلفون واتصلت بصديقي، وقلت له: أتعلم من التي كلمتني اليوم، عبير محمد، ستأتي غدا إلى مكتبي لقد مضى عشرون عاما لم أرها.. هل ستحضر؟!

قال لي: أرجوك أجّل قدومها لبعد غد؛أنا مشغول جدا، وما زلت أحبها رغم غيابها عشرين عاما، فأجلتها إلى اليوم التالي.

وفي اليوم الموعود اتصل، وقال: لن أتمكن من القدوم في الوقت المحدد؛ أخّرها زهاء نصف ساعة.

جاءت السكرتيرة، وقالت: عبير بالباب.. رأيت امرأة ضخمة وسمينة جدا.. وسلمت عليّ بحرارة..

تفاجأت؛ فلم يبق من معالميها إلا القليل.. وفقدت نضارتها وبريقها وجمالها.

قررت أن أصرفها بسرعة؛ فقمت بإتمام كافة معاملاتها بسرعة قبل حضور صديقي.

واعتذرت منها، كي تغادر، وغادرت بسرعة.. وصل صديقي بعدها بدقائق.. سالني عنها،

قلت له: اجلس واشرب شيئا كي أحكي لك.

كان متشوقا جدا.. سألته: هل ما زلت تحب عبير الجميلة جميلة القوام وصاحبة الشعر الطويل، فقال: نعم.

قلت: جاءت امرأة أخرى، لم أحب ان تراها؛ كي تبقى تحب عبير الموجودة في ماضيك.

بعد أسبوع عادت تستكمل بعض الأوراق فاخبرتها، وقالت: فعلت الصواب رغم شوقي اليه.

وهل تتوقع أن ترى الأرستقراطية إياها، أم إمرأة أخرى؟

قال الخنفشاري: أراها تغيرت شكلا لا يهمني بل روحها.

وأضاف: لقد خنتها أنا؛ لقد تزوجت، وغيرّت الكيمياء إلى الفرن والخبز.

هي بقيت مخلصة لي تعيش على ذكراي، يخبرني أبو خديجة عنها دائمة الحضور.

obeikandi.com

جنازة الفنان

وقف الخنفشاري في جنازة الفنان الذي رسم بأحلامه شجرة الزيتون على شكل هرم أحمر بكوفية وجذور الشجرة تتشبث بالأرض، كان يقف في الجنازة حزينا.. وقف نبيل بجانبه؛ يبكي بحرقة شديدة، كطفل بائس يعود إلى جذوره الأولى كما يحنو عليه الفنان ويربت على كتفيه، ووقف بجانبه أبو خديجة يعتصره الحزن.

ومدت يد إلى الكاتب؛ إنه الخنفشاري بنفس ألوانه المناكفة للحزن، وقميصه الأحمر الفاقع، وبنطاله الأخضر وحذائه الأبيض وحزامه الفسفوري وجواربه الزرقاء.

ضغط على يده مرحبا ومعزيا.. بعد اتمام الدفن بحثوا عن زوجته التي تقف بعيدا بلباسها الاسود.. وفي صف النساء تقف الفتاة الغامرة.

سلّموا وعزوا.. تبعته الفتاة الغامرة وبعدما ابتعدوا عن العزاء.

سألوه: من جاء بك؟

قال: أبو خديجة..

وماذا ستفعل؟

obeikandi.com

قال: أكتب عن أحلامي الثورية المحطمة، ما زلت أتذكر كل رفاق السجن يقرأون بابلو نيرودا مبشرا بالحرية، وأبو القاسم الشابي ومحمود درويش..

لكن لا يعلمون أننا نفقد أشياء كثيرة عندما ننال عُشر الحرية،

كما يفقد الصوفي أشياء كبرى عندما ينقلب إلى درويش،

ويفقد الثوري أَلقه بعدما يكشتف أنه ليس أبا علي، بل ابن العائلة كذا.

قررت أن أعود إلى فتاتي، فهل تقبلني؟

أضاف: قررت أن أتنازل عن الخباز، وأجرب أحجيتكم البائسة وأعود إلى الكيمياء كمدرس.

وضحك بصوت عالٍ..

وفعلا، وجدتُ المدرسة التي ستقبلني.

وقال أبو خديجة، متهكمًا: شرط المديرة أن يخفف الألوان.

قال: (فشرت بدي ازيدها).

ابو خديجة: وهل ممكن أن تكوي ملابسك.

فقال: يا أغبياء، اليوم أنا الموضة وضحك مجلجلا.

obeikandi.com

جاءت الفتاة الغامرة بسرعة..

ومدت يدها نحوه، وصرخت بأعلى صوتها:خنفشاري!!

قال بصوته الأجش:أكيد هذه السافلة منكم.

ضحكوا جميعا.

أشاح نظره نحو إمرأة قادمة من هناك تتشح بالسواد؛ تمشي بتناغم ساحر.. فرك عينيه جيدا.. نظروا نحوه.. أبو خديجة، ابتسم، وسأله: أتعرف هذه المرأة، إنها.

أسكته بإشارة.

تقدمت، واقتربت أكثر.. ابتسمت مع دمعة.. فاض الدمع من عينيها..

الخنفشاري: ارتبك وتأتأ.

أبو خديجة: نعم، الأرستقراطية.

وخطا نحوها الخنفشاري، لم يعرف كيف يتصرف؛ أيمد يده، أم يفتح ذراعيه.

أنتِ من طيف مجنون، يحتلني يطيح بي.

كنت في سبيلي.

obeikandl.com

قالت: يا مجنون أيها البسيط المعقد..أنت معضلتي..

ضمّها.

قالت له: ماذا كتبت أيها الخنفشاري في رسالة العودة؟

قال لها: جلست على مصطبة مدرج عمان قبل عودتي إلى هنا لأشارك في جنازة صديقي الفنان.. ترددت كثيرا ولكنك كنتِ أنت الحاضرة في ذهني.

خفت منك أن أعود وأسئلتك التي تدق في كياني: من يعيد للثورة بريقها؟

حبّك للمتصوفين، وسؤالك:من يعيد للمتصوف النور في جبينه؟

ضمته بعنف، وقالت: أتعتقد أنك عدت؟

قال: لا، لم أعد.

تريدون الخنفشاري أن يعود: هل تستطيعون إعادتي إلى ما كنت عليه، إلي روحي وقلقي وثورتي وتوبتي.

أصدقائي الواهمين قررت مطولا أن أعود، ولكن الزمن يسير نحو الإمام.

obeikandi.com

اين الأبطال رحلوا! وبقي من المدعيين لصوص البطولات.

فال الخنفشاري: سأعود، ولكن باهتا؛ ظلا للماضي.. أعود مجرد ركام أحلام.

أعود متعثرا، متكركرا محبتي للناس الفقراء.

ضمّها.. نظر في عينيها، وقال: أنا محطم، خذيني إلى القدس، ماذا تبقي من قداستها؟

سمعتُ تحذير كل الشعراء الذين أحبوا القدس، واليوم زيتها وقداستها ونورها مطوقة بجدار.

كيف لي أن أعود وسيدتي المقدسية في قلبي وأحلام المشردين.

أما كسروا الوهم العالق في إراداتي بالنصر.

هل أعود رافعا راية! راية النصر؟ ام راية الاستسلام؟

صرخ: أريد أن أعود، ولكن لا رايات.

تملصت منه.. ركضت.. اندست في بحر العابرين.

لم ينتبه إلا وقد غابت.

عرف أنها غادرته.

obeikandi.com

أمسك رأسه بين يديه، قال: وصلنا أخيرا إلى الشاطئ المهجور..

قالت الفتاة: بعد حين؛ عندما التقت الكاتب: أنا لست امرأة من العدم، وأنت تعرف أنني لست من الدراما التي تصنعها لتربك أبطال حكاياتك.

أيها الكاتب الغض، أنا ساريك أني بطلة الخنفشاري؛ سأطبق عليك أسراري، كي لا تعرف صنع نهاية روايتك، وتبقى معلقة..

تحاول خداع قرائك؛ أن نهايتها مفتوحة.. أنت تلعب بالنار معي..

إذا لم تعتذر عن تسميته الخنفشاري، أو تفك حروفه وتخبر ماذا تعني الكلمة، سأكون قاسية ومؤذية. فأنا لست امرأة من ورق ولا لعبة من رمل.

حان وقتك لتعرف من أنا!

أنتهى

obeikandl.com